الزلزال

الزلزال –رواية

الطاهر وطار-مؤلف

الطاهر وطار

الزلزال

رواية

1 ـ باب القنطرة

- حاسة الشم، تطغى على باقي الحواس، في قسنطينة، في كل خطوة، وفي كل التفاتة، وفي كل نفس، تبرز رائحة متميزة، صارخة الشخصية، تقدم نفسها لأعصاب وقلب المرء.

علق الشيخ بوالارواح وهو يفتح باب السيارة التي فرغ من مهمة إيقافها في المكان الضيق الذي تمكن من العثور عليه بعد بحث طويل، في الساحة الصغيرة قبالة جسر باب القنطرة.

تنهد من أعماقه، وهو يسوي سترته، وينظر في بطئ إلى ساعته، ليقرر بعد طول تأمل:

- إلا ربع. تسع ساعات من العاصمة إلى هنا، مشية طبيعية مع هذه الحرارة. قسنطينة مثل الكعبة، يستحب الدخول إليها يوم الجمعة.

استدار، بعد أن أغلق الأبواب ليصعد مع شارع بالمهيدي ثم توقف. حدق لحظة ثم التفت إلى السيارة، وأعاد تفقد أبوابها الأربعة، ليطمئن أكثر إلى أنها مغلقة.

صفر القطار، فشعر بنوع من الضيق، للصفير الذي بدا له غليظا أكثر من اللازم، ممددا فيه أكثر مما يجب.

آه.. متأخر عن النفير. لا. تصريح جريء، بقلق المسافرين الذين يحملهم من دخول المدينة.

انطلق بصره مع الجسر، واستعاد شيئا من الاطمئنان رغم تداخل السيارات، والراجلين نساء ورجالا، في حركة فوضوية.

- هؤلاء الناس، وهاته السيارات في حركة مرتجلة، بدأت الحياة القسنطينية تضيع من ذاكرتي.

قرر، ثم أضاف قبل أن ينقل بصره إلى فوق، وينتقل به في بطئ:

- هذا الجسر أفضل جسور قسنطينة السبعة.

عريض وقصير، سرعان ما ينسي الإنسان الهوة التي بينه وبين الوادي.

كل شيء من هذه الناحية، يبدو على عهده. خضرة الأشجار. تميز البنايات وتباينها. هناك الثانوية وهناك المستشفى، وهناك مخزن الحبوب الشاذ الوضع، وكـ ـأنما لم يفكر واضعوه إلا في إقامة دليل متواصل، على أن المدينة، أساسا، عاصمة فلاحية، أو في إشعار السكان بأن هناك مدخرا من القمح والشعير، وأنهم لفترة طويلة في حالة حصار، لن يموتوا جوعا. وهناك.. آه. تمثال القديسة جان دارك بجناحيه، متأهب لطيران لم يتم، منذ عهد بعيد. ثم .. إله قسنطينة، الجسر المعلق.

اهتز قلب الشيخ عبد المجيد بوالارواح، عندما لمح الجسر المعلق، أعاد بصره إلى المستشفى وخزان الحبوب والثانوية، والفيلات والأشجار، وتساءل:

- ألا تعبد أنظف، مما كانت عليه. أزهى. تعددت الألوان، وقل اللون الأوروبي الوقور، السكري؟أولا تبدو، أيضا، أنها منحنية، وكأنما تود أن تطل على أعماق هذا الأخدود العظيم؟لست أدري لم اختار وادي الرمال فتح هذه الثغرة في قلب مدينة منشغلة بنفسها كهذه؟

ارتفع الآذان، ونشط قلب الشيخ عبد المجيد بوالارواح، واستدار مقرا العزم، على الصعود مع الشارع الذي غمره بمختلف روائح النباتات، والطبخات، والعطور، وبسيل من السيارات المنحدرة، ومن الراجلين والراجلات، في جميع الاتجاهات.

- لا حول ولا قوة إلا بالله... ما الذي يدفع الناس حتى يرتجلوا مشيتهم بهذا الشكل في هذه المدينة؟لم أصل بالسيارة إلى هنا إلا بعد أن كدت أن أهجرها وسط

الشارع، خشية أن يغمروها كالذباب.. كأنما هم في يوم الحشر!. ما دهى هؤلاء الناس حتى يتدافعوا هكذا، في حركة عشوائية، نازلين، صاعدين مقبلين، مدبرين، خفافا، ثقالا، في هذا الحر؟

حقا بدأت أنسى المدينة.

لا. الحق، الحق، المدينة انقلبت رأسا على عقب. زمن الفرنسيين كانت هادئة. هادئة بشكل ملفت للنظر. تدب الحياة فيها مع مطلع النهار، رويدا رويدا، وتزدهر بين العاشرة ومنتصف النهار، ثم تخفت فجأة، حتى الساعة الثالثة، لتستأنف تصاعدها، حتى تشتد بين الخامسة والتاسعة عندما يغادر التلاميذ المدارس والثانويات والمعاهد، وتتألق الأنوار، وتنطلق العطور، من الغادات الأوروبيات والإسرائيليات اللائي يملأن الشوارع، كالحوريات، بهجة وحبورا.

تغير كل شيء. صدق ابن خلدون عندما ...

لا.لا. كافحنا من أجل أن تصير الجزائر عربية، ولن نندم.

قاومنا رأي ابن خلدون هذا في مطلع الاستقلال، وفي باقي السنوات، حتى عندما بدأوا يخرجون عن الموضوع، ويعلنون في كل مرة عن فكرة مستوردة من هنا أو هناك، لكن بالغوا.. بالغوا وأيم الحق.

خدعونا. خدعونا. بدأوا بالاشتراكية، حروفا، ثم راحوا يبعثون فيها الروح، حتى صارت كلمة، تعني – لا محالة- شيئا، ثم ها هم وفجأة.

لا. لا.

الحرية حرية. الاستقلال استقلال. الحكم حكم. السلطة سلطة. لكن، إعمال المبضع في الحياة، حتى حد المنكر. لا.

قرأنا العلم الريف، وجالسنا العلماء، وكافحنا مع الشيخ بن باديس تغمده الله برحمته الواسعة، وتفقهنا في المذاهب الأربعة، ولم نعثر، على هذا المنكر.

لا. الشيء لمن يملكه، والتمليك وارد في القرآن الكريم...

ثم. لا.

الناس راضون بوضعيتهم، قانعون بما جاد به الله عليهم من فيئه، وبما قسم عليهم مقسم الأرزاق، وما دخلهم،هم، لولا أنهم يعجلون قيام الساعة بالمروق.

دفعه أحدهم، بكتفه، حتى اضطره إلى الخروج عن الطوار الضيق، لتصرخ عجلات سيارة وهي تتوقف عند قدميه، معلنة بمنبهها عن احتجاجها الصارخ.

تتالت صرخات العجلات، وأعقبتها ضجة اصطدامات متعاقبة، وتجمهر الناس، وارتفع صياح الأطفال.

التفت، هنا وهناك، لمح فجوة، قذف بدنه المترهل فيها، ثم مرق، مجتازا التجمهر، وأخرج ساعة جيبه، ليتفقد الوقت في لا مبالاة.

- حان الوقت.

قال، وقرر أن يسرع خطاه ليقطع المسافة القصيرة، التي تفصله عن الجامع الكبير، بيد أن صوتا متميزا، جعله يتوقف، ويركز كل انتباهه. كان صاحبه يصرخ في احتجاج:

- ضاقت المدينة، يا ربي سيدي ضاقت. خمسمائة ألف ساكن. عوض مائة وخمسين ألفا في عهد الاستعمار، نصف مليون يا ربي سيدي. نصف مليون برمته، بطمه وطميمه فوق هذه الصخرة. تركوا قرارهم وبواديهم، واقتحموا المدينة، يملأونها حتى لم يبق فيها متنفس. حتى الهواء امتصوه. ولم يتركوا في الجو إلا رائحة آباطهم.

يا صاحب البرهان، يا سيدي راشد، احضر، وقل فيها القول الفصل. حركها بهم وبمنكرهم وفسقهم وفجورهم، حان لك أن تحضر يا سيدي راشد. حان. لقد صبرت أكثر مما ينبغي يا صاحب البرهان.

بحث عن صاحب الصوت، حتى قابله، شيخ حضري بطربوشه الأحمر الطويل، يقف في مدخل مقهى النجمة، ويرفع كفيه إلى السماء، متضرعا.

ألقى نظرة خاطفة، على الصف الطويل الذي يقف عند مدخل المصعد، ثم على الجسر الضيق المعلق بالحبال الفولاذية، ثم على الأخدود العظيم، الذي يفصل بين ضفتي النهر، ويقف حاجزا بين المدينة، وبين جزء كبير منها، ثم على الصخرة الملساء، المنحدرة مع جانبي الأخدود، في تنوءات والتواءات تتخللها أشجار وغيران، وتحوم حولها حمامات دكناء وناصعة، تبدو كالصوف المنفوش تذروه ريح بطيئة.

شعر بإحساس غريب يملأ نفسه، حتى أنه فكر أن لونا ما، داكنا جدا، على أية حال، انصب في قلبه، وراح يحاول حصر هذا الإحساس، أو اللون. ثم، كأنما نسيه فجأة. قال يحدث نفسه بصوت مرتفع:

- يقول، تركوا قراهم وبواديهم، واقتحموا المدينة.. ماذا يريدهم أن يفعلوا في القرى والبوادي؟أليسطوا على أراضي الملاك وينتزعوها منهم؟إنهم كسالى لم يعودوا يرضون بالعمل في الأرض، جاؤوا المدينة، لتعطيهم الحكومة العمل.

من واجب الحكومة أن تبني لهم مصانع وتشغلهم. من واجبها - على الأقل- أن ترسلهم إلى الخارج، أن تفتح لهم مجال الخروج، الذي صار يتعذر يوما بعد يوم. لا. بدل هذا اتجهت أنظارهم إلى المساس بالصالحين الذين ورثهم الله أرضه.

الملاعين...

الحضريون، بكل صفة – هذه عادتهم. يريدون الاستئثار بالمدينة وحدهم ويعلنون بمناسبة وبدونها عن رفضهم للآفاقيين.

عند مدخل الجامع الكبير، استرعى انتباه الشيخ عبد المجيد بوالارواح من خلال وجود المتسولين والمتسولات، الذين يقفون في صف طويل، مع جانب الجدار، المطلي بالأخضر الباهت. أمرا آخر، لم يعهده في المدينة.

الوجوه أيضا تتميز في قسنطينة. الملامح، تختلف من شخص لآخر، القامات كذلك. زمن الاستعمار، كانت الملامح عامة: أوروبية، وعربية. أما الآن، فلا. ملامح الشاوي

الصاعد من "عين البيضاء" أو من "عين مليلة"، أو "باتنة"، أو "خنشلة"، أو "شلغوم العيد"، واضحة، وملامح الفرجيوي القادم من "فج مزالة" أو "الميلي"، أو "القلي" بمختلف أنواعه، أو"السكيكدي"، أو الزناتي، والعزابي واضحة أيضا.

- الملامح، كالروائح، تعلن عن نفسها بنفسها، بشكل صارخ في هذه المدينة.

قرر ودفع بعنف يد متسولة تعترض طريقه، ورفع حذاءه، واقتحم الباب، وهو يلفظ في تبرم:

- اسحبي يدك يا امرأة. لا حول ولا قوة إلا بالله. المصيبة. المصائب، من أين خرجوا، لماذا لا تعودون إلى قراكم ودواويركم؟

- تسقط على رأسك إن شاء الله. المصيبة. أو تحملنا على كتفيك، حتى تستثقلنا؟

واصلت المرأة عراكها، بلهجة الحدود الشرقية، وفي وقاحة، بينة، بالنسبة للشيخ عبد المجيد بوالارواح، الذي

التفت فجأة، وحدق مليا ثم عدل عن فكرة، كان يود أن يعلن عنها للمرأة.

لقد هم أن يقول لها، وللجميع:

- تحملنا وإياكم صخرة، يعمل الماء فيها عمله من كل جانب، والله أعلم بما في باطنها من تجاويف، ومن أكلاس متذاوبة، يمكن في كل لحظة، أن تعلن بطريقتها الخاصة، عن استثقالها لنا.

إلا أن رؤية كفي الحضري المطربش الواقف في مدخل مقهى النجمة وارتفاع صوته:

- يا صاحب البرهان، يا سيدي راشد .. حركها بهم وبمنكرهم وفسقهم. .. جعله يعدل، ويواصل طريقه، نحو الصف، والحذاء في يده، والشعور باللون الداكن يتكور في أعماقه، يعاوده.

عندما اعتدل، لأداء ركعتي تحية المسجد، تراءى له في المنبر الشيخ ابن باديس، بحركات وجهة النشيطة، لا بذلك

الجمود الذي بذل الرسامون جهدهم، لإبرازه على ملامحه، بطريقة مثالية، تؤمن بأن العلم، هو التأمل الأبله، والوقار الساذج، لا الحركة والحيوية، والتطلع الذكي.

بدا له أن صورة ابن باديس المترائية غريبة إلى حد كبير، عن الفكرة التي غرسها في نفسه عنه، طيلة السنوات التي أعقبت وفاته، بكل الأحداث التي تخللتها.

- في الحق، كان غريبا عنا، رغم الحماس الذي كنا نحيطه به. كان نهرا ممتلئا، يسير بكل جوانبه نحو المصب، وكنا...

لم يشأ أن يواصل الإقرار، بما بدا له أنه الحقيقة تتكشف من خلال حيوية صورة ابن باديس واكتفى بالإعلان:

- لو عاش لكان لنا معه شأن. إنما الدين هو الدين، وليس شيئا آخر. الدين الإخلاص للسلف. وكل بدعة ضلال.

- كان يتلو التحية، عندما تخلص نهائيا، من التفكير في ابن باديس، أنسته فيه حركة سبابته اليمنى.. تحركت تلقائيا أفقيا بسرعة خارقة، ثم راحت تتثاقل شيئا فشيئا حتى توقفت نهائيا، وفجأة، راحت تهتز عموديا، اهتزازات متذبذبة ثم توقفت برهة لتنطلق في حركة دائرية غريبة.

- لعنه الله، الشيطان الرجيم.. لعنه الله الوسواس الخناس. أعاد إلى إصبعي نفس الحركة التي طردته بسببها من التعليم.. ترى ما كان مصيره ..؟.

كان الطلبة يسمونه الفيلسوف، وكنت أسميه المارق. رغم وداعته، لم أطق أن أتعاطف معه. كلما اقترب مني، أو تحدث إلي، شعرت أنني أمام شخص، يعلم ما في باطني، وبالتالي أمام عدوي. لا يعلم السرائر إلا الله سبحانه تعالى، وذاكم الشرير المارق، كان يقرأ بعينيه سرائر الناس.

سألني أثناء الدرس: سيدي، هل الله الكبير، المسؤول مباشرة عن كل ما في العوالم، والمهتم بمصائر الأفلاك

والسماوات والأراضي، يجد الوقت الكافي ليتأمل حركة إصبع مصل، وهل يسوؤه أن أن تكون عمودية أو دائرية. وهل يعنيه أيضا أمر المصلي مقطوع السبابة أو اليد؟.

تركته ينهي حديثه، ثم زمرجت فيه: أنت مرفوض. أقسم برأس النبي الطاهر شفيع الأمة، أنك مرفوض رفضا باتا قاطعا جازما. أخرج منها يا إبليس.

قهقه. ثم حمل جرابه، وغادر الجامع باعتداد وتطاول.

لعن الله إبليس. ها أنا آتي بنفس الحركة. مرت على الحادثة ثلاث وعشرون سنة. وها هي تجدد نفسها في إصبعي...

أسند ظهره إلى جدار المسجد، وراح يحتضن بطنه المنتفخة بذراعيه، وهو يحاول انتعال الحذاء، والعرق يتصبب من وجهه، وعيناه الكبيرتان البارزتان، تتسعان أكثر فأكثر، بينما شفتاه تتمتمان بتلاوة دعاء، وعضلات وجهه، تتقلص، وترتخي.

- لا. هذا " الدورو" سقط مني.
- لا مني أنا.
- يا أحباب الله.
- ينجيكم ويستر حالكم.
- يا رضا الله والوالدين.
- أنا الأولى.
- لا. أنا.

اصطخبت أصوات المتسولين في أذنيه، بينما اقتحمت أنفه رائحة التراب منبعثة من أجسامهم، إلى جانب رائحة شواء رأس، وزلابية حامضة مقلاة عدة مرات، إلى جانب عطر ياسمين، إلى جانب قشور ثمرة الصبار.

- الأصوات مثل الروائح والملامح، في قسنطينة: لها شخصيتها. كيف لم أنتبه لكل هذا زمن الاستعمار.

لا. المدينة تغيرت فاضت بالبشر. نصف مليون على صخرة.

لا. هذا كثير.

عاوده الشعور باللون الداكن في أعماقه.

بدل أن يركز الشيخ خطبة الجمعة على التقوى، استغرق في شرح الزلزال وعظمته، وذهول المرضعة عما أرضعت، يوم حلوله، ووضع كل ذات حمل لحملها، وظهور الناس كأنهم سكارى وما هم بسكارى.

الذهول، والهلع، وامتلاء النفس باللون الداكن، تلكم هي الحالة التي وصف بها تعالى، قيام الساعة، وهي حالة شاء تعالى أن يخص بها الزلزال الذي استعاره سبحانه للتعبير عن قيام الساعة.

- الله ينوب.

أعلن لبنية، وهو يعيد النقود إلى جيبه، بعد أن بحث عن "دورو" بينها ولم يجد سوى قطعات العشرين والعشرة والأربعة.

تدافع يحرك قدميه في خطوط متقاطعة، وصدره وعجزه في حركة لولبية، ورأسه يرسم تارة نصف دائرة، وأخرى دائرة كاملة، بينما ذراعاه تطوقان بطنه.

- آكل لقمة ويفرجها الله. أمامي بعض متسع من الوقت، وفي الأماكن سبق هؤلاء الملاعبين.

خب. ليقطع الشارع الضيق، واقتحم "الرصيف"، وقف عند مدخل الساحة التي تتفرع عنها دروب ومسالك، صاعدة نازلة، مغطاة في مقاطع، وعارية في أخرى.

- الرصيف كما كان: باعة ثمرة الصبار في أماكنهم. المتاجر في أماكنها بنفس البضاعة التي تتخصص بها.. "عيسى الجرموني" يرتفع صوته من هناك- *يا عين الكرمة واعطني الأخبار*-. و"الفرقاني" من هنا- *السانية والبئر والناعورة*-. والشيخ الكرد من

هنالك - طهر يا لمطهر- شحاذ السكاكين في موضعه، والباعة المتجولون، ينتقلون كالسحاب من موضع لآخر.

هنا معدن القسنطيني الحر، ومعقله على مر الأزمان، يتحصن فيه، بحرفه الدقيقة، ضد كل دخيل، وينطلق منه، ليغزو كامل الشرق حتى الصحراء بحرائره، وبنحاسه، وبعطوره، وبخوره، وببشامقه و"قوفياته" المطرزة، حتى بشموعه وبتقليعات العرائس.

الجامع الأخضر، وجامع ميمون وزاوية المصلى على اليمين، وقربه جامع الباي. جامع سيدي قموش في آخر الدرب المقابل.

الروائح قوية، رائحة التعفن تقطع أوصال قلب المرء.

رن في أذنه صوت الحضري المطربش: حتى الهواء امتصوه، ولم يتركوا في الجو إلا رائحة آباطهم. فعلق وهو يجيل بصره في الجدران.

- الحق. نصف مليون كثير جدا على هذه المدينة. أمة.. الجدران تبدو منصبة إلى هنا بعض الشيء. حالة الوهن بادية عليها، ما في ذلك ريب.. "تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى. ولكن عذاب الله شديد".. صدق الله العظيم...

اعتراه الشعور الغامض، وأحس باللون الداكن في أعماقه، يتحول إلى مادة سائلة. غاز، أو رصاص، أو قار، أو أي شيء من قبيل المادة الثقيلة، المتجاوبة مع الحرارة..

تردد لحظات، ثم قرر أن يقطع الساحة الصغيرة في اتجاه الدرب المقابل، حيث مطعم بالباي الشهير.

تأمل مدخل المطعم، فلم يصدق عينيه.. المكان هو المكان، لكن حاله تغيرت كثيرا...

التفت إلى المقهى المواجه، ألفاه في موضعه، لكنه متدهور أيضا بشكل فظيع. واصل التأمل.. فندق فرنسا، يفغر فاه، دون أن يقول شيئا عن حقيقته، هل مازال على

عهده: نزل فرنسا أم تحول إلى نزل للفئران والبق، عاد ببصره إلى المطعم.

- إنه هو. وها هو نزل تونس فوقه. بل البقال الذي خلق لسببه، لا يزال يقابله. ترى ماذا يبيع له الآن ؟. ابن خلدون الخبيث. ابن خلدون المسكين. ابن خلدون أديب وليس مؤرخا.

نزل درجة إلى اليمين ليجد نفسه داخل المحل. طلاء الجدران ذائب إلى درجة فقد معها لونه، المقاعد اختفت وحلت محلها مصاطب خشبية متداعية، والمناضد المستديرة، حلت محلها رفوف زنكية على الجدران.

- لا حول ولا قوة إلا بالله. أحقا هذا هو مطعم بالباي، الذي عرف الآغوات والباشوات والمشائخ، وكبار القوم، أصحاب الأرض والأغنام والجاه.. "يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل

حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى.." صدق الله العظيم.

شعر بالحرارة داخله، وبتكاثف المادة السائلة، وزيادة ضغطها. تقلصت عضلات وجهه، واتسعت حدقتا عينيه، وانفرجت شفتاه، وتدلى لسانه، وانحنى عنقه.

- مرحبا بك. تفضل.

أيقظه الصوت، الذي وجه له دعوة متخاذلة، غير واثقة من أن هذا الشيخ الوقور، صاحب البذلة الصيفية والحذاء الأسود اللماع، يتفضل، ويجلس على مصطبة أمام رف زنكي، وإلى جانب هؤلاء المتسخين، من باعة ثمر الصبار، وحمالين، ونشاليا، ومساعدي سائقي الشاحنات، وصناع المقاهي الرديئة، ليتناول قطعة خبز، بفلفلة قلاة منذ يومين، أة ببيضة مسلوقة منذ أسبوع، أو بكأس لبن حامض، مخلوط بالدقيق.

تأمل صاحب الدعوة المترددة، فألفاه شيخا بلحية كثة، ونضارات صغيرة شفافة، وعراقية بيضاء متسخة على

رأسه، وقميص ممزق مرقع على صدره، وسروال حوكي في عجزه، وبلغة مهترئة قديمه. قامته قصيرة، ورأسه كبير، وصدره ضيق.

بالباي، بدمه ولحمه، غير أن سواد الشعر خلفه البياض، وامتلاء البدن خلفه نتوء العظام.. سبحان مغير الأحوال.

ـ من أرى؟ من أرى. الباشأغا الحنصي؟

ـ لا.

ـ الاسآغا بن شنوف؟

ـ لا. إحزر.

ـ الحاج محاتة؟

ـ ما بالك لا تذكر إلا الباشغوات والأغاوات، وعملار فرنسا.. أنسيت رجال العلم، والصالحين وباقي الأعيان.؟

ـ آه. الشيح عبد المجيد بوالارواح. يا ألف مرحبا، يا ألف أهلا وسهلا. صوتك لا يغرب عن أذني أبدا.

انحنى الشيخ عبد المجيد بوالارواح، وعانقه باستنكاف، ثم تساءل:

ـ يا سيدي؟ الناس كلها تقدمت، وأنت تأخرت؟؟؟

ـ الدنيا. الدنيا الغرارة الغدارة يا الشيخ.. الحمد لله. الحمد لله. مرحبا بقضائه ورضائه... " إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم، وما نحن بمسلوقين.." صدق الله العظيم.

ـ صدق الله العظيم.

عقب الشيخ بوالارواح. ثم طأطأ رأسه، يتلو في سره بقية الآية بتأثر بالغ:.. فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون، يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون، خاشعة أبصارهم، ترهقهم ذلة، داك اليوم الذي يوعدون..."

ورفع صوته:

ـ صدق الله العظيم. الفائدة في سلامة العقل والبدن.

ـ الحمد لله. مرحبا بقضائه ورضائه. هل أدعوك للتفضل..؟ هذه غيبة؟

ـ الحق، غبت كثيرا عن قسنطينة. سبع سنوات في تونس، وتسع في العاصمة.

ـ آه. أنت في العاصمة؟ وماذا تفعل هنالك؟ لا بد أنك في الحكومة يا الشيخ.

- لعن الله حكومة الكفار والملحدين. أعوذ بالله. أنا في التعليم. مدير.

- تفضل. تفضل.

- أرى أن مطعمك تغير كثيرا.

- عندي. في مقصورتي. أحضر لك الشواء. أو دماغا أو ما طاب لك. عندي كمية لبن غير مغشوش وضعتها جانبا لأمثالك. هذه ساعة مباركة. ما زالت البركة. ما زال الخير والرحمة.

لفت انتباه الشيخ بوالارواح صورة معلقة في الجدار، فاقترب منها ليتبين أصحابها. ولشد ما كانت دهشته كبيرة حين وجدها للشيخ بن باديس محاطا بالشيخين التبسي والإبراهيمي.

التجار بما فيهم الخونة والمفلسون معنا. مع السلف. الشعب الحقيقي هو هؤلاء، وليس العمال والخماسة، والرعاة.

فكر. ثم التفت إلى بالباي، الذي كان يبتسم في حبور.. ويعلن لنفسه: وجدت أخيرا، من أنتمي إليهم. هؤلاء هم الصالحون.

- هيا تفضل.

- أعطيت الفضل.

عاق، ثم ولج معه المقصورة. ليقدم له مضيفه مقعدا، ويطلب منه انتظاره حول منضدة، لا تزال تحتفظ برونقها، وتبدو بالنسبة للمصاطب وللرفوف الزنكية، في منتهى

الفخامة والضخامة. وما إن غادره، حتى رفع بصره نحو الجدار.

قابلته صورة ضخمة، في إطار مذهب، فتناهض وتقدم يتفحصها.

بالباي في أيام عزته وعظمته محاطا بجماعة من كبار ولاية قسنطينة الكبرى، باشاغاوات وآغاوات وقياد، ونواب وموظفين سامين.. أنوار ثرية ضخمة تتلألأ، منعكسة على ملاعق الفضة، وكؤوس البلور، ومزهريات النحاس.

عاد بالباي بصحفتي "شربة" وصحن كبير من الكستيلية وآخر من التين الأخضر، وجلس.

ـ كيف حال العاصمة؟

- ليس على ما يرام. الوضعية واحدة من الشرق إلى الغرب إلى الوسط.. ابن خلدون ترك آية... وأنتم هنا؟

- كما ترى. الخلق يكاد يأكل بعضه.

- ماذا أصاب مطعمك العظيم؟ ما الذي حوله إلى ما هو عليه؟

- أسكت. أسكت. الفرنسيون خرجوا. المسلمون خلفوهم. الشقة التي كانت تأوي عائلة أضحت تأوي عدة عائلات... أسر الفرنسيين كانت لا تتعدى الثلاثة أو الأربعة أفراد على أقصى تقدير، أما أسر بني عمك، فلا أقل من تسعة وعشرة. البوادي رحلت إلى القرى والمدن الصغيرة، وهذه رحل سكانها، إلى قسنطينة، ولم يبق هناك من يؤم المطاعم لا الفخمة، ولا غير الفخمة، حتى من يتسوق إلى المدينة، لزيارة ابنه في الثانوية أو لشراء قطعة غيار، يجد أقارب له هنا يأكل عندهم، فاضطرت إلى التعامل حسب متطلبات الوضع، كما ترى. فليفلة، وبيضة، ولبنة، وما شابه...

مرحبا بقضائه. وبرضائه.

- اليوم شيخ الجامع الكبير خطب عن الزلزال. لا أدري ما الذي ذكره به..؟

- ايه. هذا الشيخ متأخر. قسنطينة زلزلت وانتهى الأمر.

- ماذا تقول؟

- قسنطينة الحقيقة انتهت. أقول. زلزلت زلزالها. لم يبق من أهلها أحد كما كان أين قسنطينة بالباي وبالفقون وبن جلول وبن تشيكو وبن كراره؟زلزلت زلزالها. زلزلت زلزالها، وحل محلها قسنطينة بو فناره وبو الشعير وبو الفول وبوطمين وبو كل الحيوانات والنباتات.

- لكن زلزال هذه المرة كبير. كبير جدا. سيشمل الداخل والخارج، سيكون كما وصفه سبحانه جل وعلا.

- الزلزال يحدث مرة واحدة يا سي بوالارواح. لكن هناك من يحس به قبل حدوثه، وهناك من يحس به أثناء حدوثه، وهناك من يحس به بعد حدوثه بزمن يطول أو بقصر.

الزلزال الحقيقي إحساس.

- نعم والله جل وعلا وصفه إحساسا. ".. تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى" صدق الله العظيم.

- صدق الله العظيم. أنا يا سي عبد المجيد بوالارواح أحسست بالزلزال، يوم كان الرعاة والحفاة والعراة يدخلون من الريف والقرى ليقتلوا الأسياد هنا ويخرجوا. يوم ذاك أحسست بالزلزال الحقيقي. إيه. كم آغا، وكم باشا آغا، وكم قائدا، وكم ضابطا مات على يد راعي أغنام، أو خماس أو حطاب أو فحام أمام هذا المطعم. ما يحدث اليوم ليس سوى ارتدادات، لما حدث إيامها.

- ".. أن يتطاول الحفاة العراة رعاة الشاة في البنيان، وأن تلد الأمة ربتها...

- حدث كل هذا وانتهى الأمر. مرحبا بقضائه ورضائه. والحمد لله على صحة الأبدان والعقول.

رفع الشيخ عبد المجيد بوالارواح بصره نحوه، واستغرق في تأمله. كان يأكل بنهم. ويتحدث بلا مبالاة وباطمئنان...

لا. هذا ليس تاجرا حقيقيا. ليس تاجرا المرة. أثر فيه الرعاع الذين يأكلون عنده. صار واحدا منهم. يا للمسخ.

بالباي الكبير، صديق الآغوات والباش آغوات والعلماء والحكام والنواب، وصل إلى هذا المصير.

- يوم استغنيت عن العمال، وشمرت عن ذراعي، أوصل لقمة إلى فم غيري، لأتمكن بعد ذلك من إيصالها إلى فمي وإلى أفواه أبنائي وأحفادي، انتهى إحساسي بالزلزال. صحة الأبدان والعقول، يا الشيخ عبد المجيد بوالارواح.

عقب بالباي، وكأنما أدرك ما يجول في خاطر محدثه، أو يواصل إقناع نفسه، بينما تمتم الشيخ عبد المجيد بوالارواح يقاطعه:

- أدركت شيئا من ذلك، فليس هناك تاجر، ولا صاحب مال راضيا عن نفسه أو عن غيره. أو عن الوضع بصفة عامة. الناس في تبرم. الشعب. الشعب الحقيقي في اختناق كبير. يملأ نفسه الكدر. اللون الداكن، والمادة السائلة.

- انكسرت كالجرة منذ زمن، ولم يبق في نفسي شيء. يوم لك ويوم عليك. مرحبا...

ولم يدعه الشيخ عبد المجيد بوالارواح يتمم، فاستطرد متضايقا من اطمئنانه، ورضاه المبالغ فيه:

- أتدري ما الذي أتى بي في هذا الحر الشديد؟

- لا ؟!

- جئت أسبقهم.

- من؟

- الدولة.

- الدولة ؟!

- نعم. قرب أذنك. المسألة سر، ولا يعلم بها إلا القليل النادر. اسمع. سيسطون على أرزاق الناس.
- على أرزاق الناس؟.
- هناك مشروع إلحادي خطير، يهيأ في الخفاء.
- تقول!؟
- نعم ينتزعون الأرض من أصحابها.
- ينتزعون الأرض من أصحابها؟.
- استمع إلي. يؤممونها.
- وماذا يفعلون بها؟.
- مثلما فعلوا بالأراضي التي خلفها الفرنسيون.

تتصور. الحقد. الحسد.. كل إناء بما فيه يرشح.

- ولكن قلت جئت تسبقهم.
- نعم. المسألة بيننا. ولا بأس أن تخبر بها أصحاب الأرض، الكبار والصغار...

أقسم في الورق الأرض على الورثاء، حتى إذا ما جاؤوا لانتزاعها، لم يجدوا بين يدي الشيء الكثير.

- لكنك يا الشيخ عبد المجيد بوالارواح متأخر جدا. هذه المسألة حلها الحاذقون منذ سنوات عديدة. الأمر واضح منذ بدأ الحديث عن الاشتراكية.

- نحن في العاصمة، كنا نظن، أننا أكثر اطلاعا من غيرنا، بحكم معرفتنا لخبايا نفوس الكثيرين من هؤلاء الحكام، لكن اتضح أننا خدعنا. الذئب لا يدجن يا بالباي.

- صحيح. حق. إذن جئت تقسم أراضيك على أبنائك. المسالة سهلة على ما يبدو.

- على ورثتي. ليس لي أبناء مع الأسف... المسألة ليست بالسهولة التي تظن..

- كيف؟

- عليّ أولا أن أعثر على أقارب. فلم أر أحدا منهم منذ الحرب تقريبا. بل، قبل ذلك بكثير، ولست أدري هل ما زال منهم من هو على قيد الحياة أم لا؟وعليّ ثانيا أن أقنعهم بضرورة مساعدتي على تنفيذ المشروع، وعليّ ثالثا، وهذا هام جدا، أن أنفذ المشروع في أسرع وقت ممكن، فحسب الأخبار المتسربة، أن المسألة عاجلة، وسيعلن عنها عما قريب.

- يكفي أن تجد قريبا أو اثنين.

- المسألة أعقد بعض الشيء، إنها مرتبطة بكمية الأرض. عندي ما يزيد عن ثلاثة آلاف هكتار.

- أهاه!

- شيء ورثته، وشيء اشتريته، أو تنازل لي عنه بعض الورثة.

- تأخرت كثيرا يا الشيخ بوالارواح.

- ومن كان يظن إمكانية الوصول إلى مثل هذا المحال. تردد باللباي في قبول ثمن الفطور، وتردد الشيخ عبد المجيد بوالارواح في دفعه، لكن سرعان ما تدخل ابن باللباي فانتزع الورقة النقدية من يد الشيخ عبد المجيد بوالارواح مبتسما:

- الله يخلف. يكثر خيرك.

راح الشيخ بوالارواح، يدفع نفسه دفعا، صاعدا الدرج الحجري، وسط دقات مطارق الإسكافيين، ورائحة الجلد، والأقدام، والآباط، والعطر المنبعث من الحلاق على اليمين، وتساءل عن الطريقة التي تمت بها المعاشرة بهذا الشكل بين الإسكافيين، واحد في المتجر، وأخر في عتبته. حقا أن بعضهم يصنع الأحذية والبشامق والنعال، بينما البعض الآخر، متخصص في ترقيعها، لكن الكثيرين منهم يقومون بالعملين في نفس الوقت.. هاه، مصلح الراديوهات وأجهزة التلفزة هذا، حديث. لم أتركه على كل حال.

الكهرباء والإليكترون والترانزيستور وأجهزة قياس الموجات، وسط الإسكافيين وباعة ثمار الصبار.

الناس صاعدون نازلون في عجلة من أمرهم.

الروائح تسير على أمواج أثيرية. كل رائحة لها موجتها التي تطاولها رائحة أخرى.

النساء السافرات أكثر من المتحجبات بهذه الملايات السوداء. عيون النساء، وخاصة الشابات والأوانس نهمة، ونظراتهن مشحونة بالفضول والتطفل.

يقين أن الزواج متوقف في قسنطينة. المساكن ممتلئة. " الشقة التي كانت تؤوي عائلة أضحت تؤوي عدة عائلات.."

يبدوا أن الأمور مختلطة بشكل كبير في هذه المدينة. وأن كثيرا من الأشياء صارت فيها طبيعية..

الباعة متداخلون، والتجار والحرفيون متداخلون. والجيران متداخلون والآباء والأبناء متداخلون، والأخوة والأخوات متداخلون. الراجلون والسيارات متداخلون،

والروائح متداخلة، شأنها شأن اللهجات والملامح، والأجناس أيضا.

هذه الجدران مائلة. السقوف تطل على الأرض.. نصف مليون فوق صخرة...

آه. هذا جامع سيدي قموش.. لا حول ولا قوة إلا بالله. إنا لله وإنا إليه لراجعون. الجامع احتل. أضحى مقرا لطبيب الأمراض الصدرية. إنا لله وإنا إليه راجعون.. "... إن زلزلة الساعة شيء عظيم، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى".. تحملنا وإياكم صخرة، يعمل الماء فيها عمله من كل جانب، الله أعلم بما في باطنها من تجاويف، ومن أكلاس متذاوبة، يمكن في كل لحظة أن تعلن بطريقتها الخاصة عن استثقالها لنا.. يا صاحب البرهان يا سيدي راشد .. قل كلمتك. .. حركها بهم وبفسقهم وفجورهم. .. الزلزال الحقيقي إحساس، كيف لم يستيقظ الإحساس بالزلزال في نفسي سوى الآن ؟..

كيف استطاع الإحساس بالزلزال أن يموت في نفس بالباي وسط هذا الجو...

ما أن أنهى آخر درجة. واقتحم شارع 19 ماي. حتى اشتدت الحرارة عليه. أحس بالمادة السائلة. تذوب أكثر في نفسه، وتملؤها بالثقل والدكنة. صدره ثقيل ممتلئ. رأسه مضغوط موهن. اضطر إلى التوقف والاستناد بيديه ومرفقيه وظهره إلى الجدار.

هذا شارع فرنسا سابقا. يبتدئ حيث ينتهي شارع "كراما" حيث ثانوية "أومال".

هنا كان الحب. والغرام والحبور والمرح، يشع من عيون الغادات الأوروبيات والإسرائيليات. هنا ما كانت تنقطع روائح عطر الياسمين، وعطر الحلم الذهبي، وعطر اللبان..

" إنا لقادرون أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين.."

قرر أن يواصل طريقه، نحو أي مقهى قريب، ليستريح بعض الشيء إلا أنه، ما أن كاد يلقي نظرة على أرضية الشارع حتى توقف.

الغبار يتصاعد. البصاق يلمع مع الشمس. الناس غادون رائحون في عجلة من أمرهم، بعضهم يحمل ديكا روميا، وبعضهم يحمل سلة بيض، وبعضهم يدفع عربة صغيرة فوقها صندوق طماطم، أو بصل أو ثمر صبار. بعضهم يبيع هذه البضاعة أو تلك، وبعضهم يقبض وآخر يدفع. لكن الجميع في عجلة من أمرهم.

عاد ببصره مع أسفل الشارع حتى قدميه، وارتفع إلى سمعه صوت عجوز تحكي لأخرى بلهجة "قلية" بارزة، وأمامهما ألياف قنب مجزأة كويرات كويرات.

كنت عندها، المغبونة، يومها. كانت الشمس ساطعة، ولكنها لم تكن في حرارة شمس اليوم. طفلها السابع على ظهره – تركه أبوه في الشهر الرابع وذهب إلى فرنسا –

وعد أن يرسل النقود حالما يصل. لكن لم يفعل حتى ذلك الوقت.

لعله لم يكن يشتغل بعد.

قلت لك... كانت المغبونة، تشد ولدها على ظهرها، بخرقة، وكنت أحمل على ظهري ولدها السادس الذي لم يكن يمشي بعد.

المنجل في يدها، وصدارة باشية في صدرها، ونحن في أرض الحاج بولعبايز. "قاطعها" لعمل الصيف بصاع قمح وصاعي شعير، ومائتي دورو.

الولد نائم على ظهرها، والعرق يتصبب من كامل بدنها، نفسها يصعد وينزل، والمنجل يروح ويجيء في يدها اليمنى، بينما اليد اليسرى تلتقف سنابل القمح. كانت قد تقدمت صف الحصادين، بعدة خطوات، وفجأة صرخت:

- آه، يا يمة الحنانة، تيتم أطفالي.

ركضت وركض الرجال والنساء نحوها، وإذا بالزرقة تصعد مع رجلها اليمنى الحافية حتى ركبتها، حتى سرتها، حتى أتت على كامل بدنها.

المغبونة شاطها عفريت كافر.

" شاطنا". عالجنا. لكن ما إن حل المساء حتى لفظت المغبونة نفسها الأخير، وبقي السبعة يجرون خلفي.

- نانة يا نانة.

2- سيدي مسيد

- لا بارك لك الله فيهم أيتها الشمطاء. تلدن مع كل قمرة مثل الأرانب، خنافيس تلتقطنهن من حيث صادف، ثم ترحن تشتكين منهم، أنتن عمرتن العالم بالشياطين، وأنتن سبب الخراب والزلزال.

، وراحوا يضغطون، وها هم يضغطون أكثر فوق صخرتها.

وجوه الجالسين، وحتى المارين ظل الشيخ بوالارواح يهتف في سره، وهو يقطع الشارع نحو النهج المقابل، قاصدا مقهى البهجة، لاستراحة خاطفة، تاركا خلفه العجوزتين، تلتفان في حكايات البؤس والشقاء، وبصوت "الفرفاني" ينبعث من " الموبوبري" مغردا مع الرباب "ويا سيدي الطالب داوني.."

المركز البلدي للإسعاف. قابلته لا فتة، إلى جانب أخرى عليها: ممنوع إيقاف السيارات، وعلى كامل الجدران كتبت العبارة بالفرنسية .. يبدو أنها من ذالكم الزمن.. مع ذلك يواجه البناية صف طويل من السيارات.. نهج 19 ماي 1956، ينطلق نحو اليمين، بينما يصعد شارع فلسطين في حزم إلى فوق.

مقهى البهجة كان في ذالكم الزمن وكر المثقفين من كامل الولاية، لا يشعر الغريب الذي يدخله إلا والنادل يقف عند رأسه هامسا:

- ثمن مشروبك مدفوع.

- ومن دفعه؟!

- قُسنطينيّ حر يأبى أن يعلن عن نفسه.

كانت الحمية الوطنية، تنمو هنا. كانت البرجوازية الصغيرة تعلن عن نفسها من هنا.

- والآن ؟!

لا حول ولا قوة إلا بالله .. اللافتة لا تزال تعلن "البهجة"، والطلاء متحال، ودقات الحجر تنبعث من الداخل قوية، بدل صوت فريد الأطرش المنساب: "بساط الريح، بساط الريح جميل ومريح".

لم يبق من الحياة السابقة إلا الآثار.. هدموا عالما وأقاموا آخر. داسوا فوق عنق روح قسنطينة وراحوا يضغطون، وها هم يضغطون أكثر فوق صخرتها،

وجوه الجالسين، وحتى المارين من السكان تحمل ملامح الشاوية! كيف استطاعوا أن يتخطوا الوادي، والجسور

السبعة، والأنهج والدروب الضيقة، ويصعدوا إلى القصبة؟ إلى حافة قسنطينة ؟!

ترى من أجل أي شيء كافح هؤلاء الناس؟أمن أجل أن يتركوا قراهم وجبالهم، ويتكدسوا في قسنطينة؟.

لا. رأسي متعب، وهذا الحجر، يأتي على ما تبقى من أعصابي. الهواء خانق وسط المدينة، ثم هذا الخلق الذي لا ينقطع عن الذهاب والمجيء. لولا المسألة الهامة التي جئت من أجلها لغادرت عالم الآخرة هذا حالا، ودون أي تردد، فلم يبق في هذا البلد إلا ما هو شكلي. وحتى هذا الشكلي، من الأنهج والمباني والجسور، وبعض أسماء وعناوين والأماكن، لن يلبث على ما يبدو، أن يستسلم للضغط الفوقي، والتخريب التحتي..

تذهل كل مرضعة.. يا صاحب البرهان حركها بهم وبمنكرهم.. الهواء امتصوه..! الزلزال إحساس، يتقدم أو يتأخر أو يكون في حينه.. قضوا على المدينة، واتجهوا إلى الريف يتآمرون على عباد الله الصالحين فيه.

آه ..

الشيء يثقل في صدري، ويسري مع شراييني وأعصابي، متسللا إلى مفاصلي وعضلاتي، ومخي. أخرج إلى حافة الصخرة، لألتقط نسمة تحت ظل قوس من الأقواس يجود بها سيدي مسيد.

رفع رأسه، فقابلته لا فتة تعلن: نهج خراب ساعد .. حرك رأسه كأنما يصادق على الجملة، ثم أعلن:

- ابن خلدون يخلد في النار على عبارته، فالعرب الذين جاءوا بالدين الحنيف، لا يمكن أن يكونوا شعارا لخراب الحياة.. لكن هاهو الواقع يصدقه، فلم يقتصروا على تخريب الحياة فقط، وإنما انطلقوا إلى الدين أيضا يخربونه.

- العربي يبني بيد ويخرب بأخرى.

كلا. كذب ابن خلدون. وخلد في جهنم. هؤلاء ليسوا عربا. وليسوا بربرا، ولا حتى وندالا أو تتارا أو مغولا أو

أقباطا. هؤلاء إما أن يكونوا روسا سلطهم الله على البلاد ليحطموا مقوماتها، وإما أن يكونوا بلا أصل ولا فصل ولا دين أو ملة، فيوم كنا نعمل بدافع العروبة والدين، وبضمير العربي الحر، إلى جانب ابن باديس وأهل الفضل والعلم من صحابته وتلاميذه كنا نعمر ولا نخرب، نعمر الألسنة بلغة الضاد، لغة القرآن الكريم، نعمر الأفئدة بالدين، بالحديث والسنة، وما كان عليه السلف. وقبل أن نحقق مهمتنا، أضرموا النار في الحياة، وها هم بعد أن خرجت فرنسا، يخربون علية المدن، ويخرجون إلى الريف ليقضوا على ما تبقى من أخياره وأشرافه وصالحيه.

توقف. وضع راحة يده اليمنى على الجدار. أرخى ركبته اليسرى، أحنى رأسه. مسح العرق عن جبينه. تنهد من أعماقه.

استغفر الله. اللعنة على إبليس. بدأت الهواجس تدخل قلبي. الكفاح كفاح. الاستقلال استقلال، الاستعمار استعمار. الحكم حكم، أما التخريب والكفر والإلحاد فمسائل أخرى.

سيلهم الله هذه الأمة، وتنجب ابن باديس أخر، وأفاضل آخرين، وسينقذونها ولو أتى عليها ألف زلزال، سيواصلون ما بدأ فيه أسلافهم، وعرقلت الأحداث إنهاءه.

رفع رأسه، وألقى نظرة على النهج القصير أمامه: متجر الأكياس لا يزال على حاله. مخزن الراديوهات الألمانية غير التجارة. الحلاق دخيل، اللبان كما كان، لعله لم يغير شاشيته هذه. مامي إسماعيل كان يسكن هنا.. فوق، في رأس الشارع، مكتبته ومطبعة جريدته "النجاح" لسان حال إدارة الولاية. كان من علية القوم. لا بد أنه الآن قعيد لا يميز، إن لم يكن ميتا.. النواب والآغوات والباشاغوات والقياد، كانوا يعينون من مكتبته. والأمور الكبيرة كان يفصل فيها هاهنا. المكتبة الآن متجر للأثاث القديم. لعل حروف المطبعة أذيبت، أو ألقيت في المزبلة.

وواصل سيره .. يبدوا أن سكان المنطقة في معظمهم شاوية فعلا. .آه. . ها هي ثكنة القصبة العظمى. جدران

طوابقها تميل إلى هنا بعض الشيء . هذا النهج ينزل إلى دار الولاية. ومقر البلدية، وقلب المدينة.

كان الإسرائيليون يسيطرون على المنطقة. المنطقة كانت في معظمها حانات تنطلق منها أصوات العساكر مع أصوات الغواني بالقهقهات، وأغاني الغرام. المنطقة الآن هادئة، رغم كثرة الغادين والرائحين.

غريبة. كيف تبدوا المتاجر مزدهرة. بل يبدو أن التجارة رائجة فعلا رغم كل شيء.

لعل إحساس الناس المتواصل بالزلزال يدفعهم إلى إنفاق كل قطعة نقود تقع بين أيديهم، وإلى التهافت على كل بضاعة تنزل. أنهم ينهبون لعلهم. كالمحكوم عليهم بالإعدام.

الشعور بالزلزال لا يفارق هؤلاء الناس أحبوا أم كرهوا.

عندما خرج إلى شارع زيروت يوسف المتمم لشارع يوغسلافيا، التفت إلى الخلف وتأمل الثكنة:

- الميلان من هنا أوضح. أشد. لا شك أنها انشقت في الوسط، حتى تميل كل هذا الميلان في اتجاهين متعاكسين.

قطع النهج واتكأ على الصور، بكلكله. وتنفس من أعماقه ...

- هاه. رائحة التراب، الحمد لله. أخيرا رائحة الأرض، المدينة هذه أشبه ما تكون بباخرة في محيط عظيم، توحي في كل خطوة بالوحشة، وبالشعور بالاغتراب، والانقطاع عن العالم.

من هنا. الهدوء التام. إنهم يهربون من مواجهة مصيرهم. بل إنهم يتحاشون الوقوف والسير هنا، حتى لا تفقد الصخرة المسكينة توازنها.

انحدر قليلا، ووجد نفسه في شارع يوغسلافيا، وتساءل: كيف أتاحت لهم عبقريتهم الاهتداء إلى تقسيم الشارع بهذا

الشكل؟نصفه لشهيد بطل، ونصفه لبلد شيوعي. في العاصمة أيضا هناك شارع مقسم بين زريوت وشيء غيفاره.

في السابق كنا نعتبر مثل هذه المساءل شكلية أما وقد بدأوا يكشرون عن أنياب الذئاب فتجب المحاسبة على كل دقيقة.

تستر تحت ظل نفق، وسرح بصره إلى الأفق البعيد ...

القمم اللامتناهية الأشكال والأحجام تتوغل في السحاب الأبيض تارة، وفي الأشجار الداكنة تارة أخرى.. تليها زاحفة نحو المنحدر تلال ورواب، بعضها أخضر، وبعضها أجرد، تلفه أو تتخلله خضرة.. عند عتبة السلسلة الجبلية، تتمدد الخضرة نحو اليمين، تحف بالوادي المتلوي، بمائة الزيتي الداكن، وبصخوره الناصعة البياض. عند الأسفل تماما، يبرز لسان من الجبل، يتخطى الوادي، هو جسر سيدي مسيد.

إلى اليسار معمل متسخ، يبدو أنه كان للكهرباء، ثم ينهض فوقه، متخللا بطريق يبدو رغم البعد أنه مهمل، مثلث

يضم حوالي مائتي مسكن من مباني أرضية، ترابية الجدران، قرميدية السقوف...

حي سيدي مسيد، يبدو كحي الجرابيع، في أولاد حارتنا للكافر نجيب محفوظ. الذي جبن المصريون عن قتله بسبب ما فيها من كفر وإلحاد، وسخرية بالأنبياء والمرسلين والملائكة.

إلى اليسار تصعد الطريق المتفرعة إلى اتجاهين: المدينة، وسطيف. خلفها بعض الشيء، يصاعد من قمة سفح عظيم، دخان أزرق كأنه لبركان يخرج في تثاقل من أماكن متعددة، منتشرة على مساحة كبيرة: مزبلة بولفرايس الشهيرة، ومن خلال الفجوات التي تتخلل الدخان، تبدو أجساد سوداء شيطانية الحركة، تتطاول وتتقاصر، تذهب وتجيء، تلف يمينا وشمالا.

دون بوسفور قسنطينة، هذا، هضاب جرداء، ثم تنحدر فلول حي الكدية: عمارات متصاغرة، ثم فيلات تتزاحم،

محاطة كلها بأشجار خضراء، وسط حدائق تصغر كلما انحدرت نحو الأسفل، ثم هضاب جرداء، حتى الحي المثاث، يمينا ويسارا في أسفل المدينة عونية الفول.

أه. فوق هذه الصخرة المخربة بالطرقات والأنفاق، تقوم مدينة يسكنها نصف مليون من البشر وتسير في شوارعها العربات والشاحنات، ملأى بالبضائع، وتختزن فيها ملايين الأطنان من المؤن، ومئات الآلاف من قوارير الغاز، وملايين الملايين من أطنان رصاص وإسمنت القنوات والمجاري، تنفجر فيها من حين لآخر قارورة غاز فتتطاير عمارة بأكملها.

من هنا. من تحت.

من هذا العالم السفلي، حيث تنساب المياه، هاربة في كل قطرة من قطراتها، بذرة من طين وأكلاس الصخرة المسكينة.

من هنا من سيدي مسيد، يكون خراب المدينة.

صخرة واحدة، ثانوية الأهمية، تهرب من هذا الجدار الصخري، المرقع بالإسمنت في أكثر من موضع تتزحزح من مكانها بعض الشيء، تفلت، فيتبعها الباقي. تنسد الجروف والتجاويف الصغيرة، ويمتلئ هذا الجرف العظيم.

من هنا. على الضفة الغربية، الانحدار الكبير، نحو الغرب، حتى البحر. ومن هنا. كان ولا يزال الخطر على قسنطينة.

وفي الحق، الغرب، ظل ولا يزال، مبعث الخطر المهدد للعرب وللمسلمين ولمدنهم، وحياتهم ودينهم.

آه. الدوار في رأسي. الارتجاج في قلبي. الوهن في ركبتي.

النظر إلى العالم السفلي، من مثل هذا العلو، يخلق الدوار في رأس الإنسان.

آه. أنا مريض. مثقل الروح .. إن زلزلة الساعة شيء عظيم. .. تذهل المرضعة عما أرضعت وتسقط الحوامل،

ويسكر الناس بدون خمر. لا يا سيدي راشد لا. إحمها يا سيدي مسيد، كما كنت تحميها باستمرار. إرأف بالأبرياء الذين عليها، وبعباد الله الصالحين الذين فوقها، والأخيار والشرفاء الذين مازالوا فيها. وأرحها من الرعاع الذين يدنسونها بأبدانهم النجسة وبأفعالهم المنكرة. سلط عليهم "طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل.." أبدأ من هنالك من الأسفل حيث لا يزال الزحف يتواصل، ثم اصعد إلى قلبها وطهره. يا سيدي مسيد... ولا تدعهم يخربون المدن لينطلقوا نحو البداوي. سلط الخصي على رجالهم، والعقم على نساءهم، حتى ينقرض نسلهم، ولا يمكث إلا النسل الصالح.

انتزع بصره من الأسفل، والتفت ليرفعه إلى فوق، يعيد التأمل في ثكنة القصبة. حفروا درجة في الصخرة وأقاموا فيها هذه الطريق. الثكنة لا تزال فوق، على جزء كبير من الصخرة وباقي المدينة، لقد رمموا الصخرة بالإسمنت في أكثر من موضوع، وأتموا الفجوات ببناء سور متقطع من الغرانيت.

كان الشعور بالزلزال يلازم حتى بناة هذه الثكنة وهذه الطريق وهذه الأسوار.

يكفي أن تنزلق غرانيته، أو قطعة إسمنت، أو جزء من صخرة، حتى يتبع الباقي.

ترى، بأي منطق سمح الإنسان الأول لنفسه، بالسكن في هذا الخطر؟ لا شك أنه بمنطق الهروب من خطر أكبر. لا يكون ساكن قسنطينة الأول، سوى مجرم هارب من العدالة، أو أفاق يقطع الطرقات في الليل، ويختفي هنا في النهار.

أنا متعب. العياء، يثقل كاهلي، إلى جانب الشيء الثقيل في صدري.

ولى منحرا نحو شارع زيروت، وعندما بلغه، فكر.. هنا يجب أن يقام جدار كجدار برلين، ليؤكد شخصية كل جهة.

قابله مقهى معلق في الطابق الأول، ينبعث منه ضجيج اللاعبين، ودقات الحجر، وتمتم عندما قرأ على لافتته عبارة "مقهى الانشراح".

- لا شرح الله لكم صدرا.

سار بضعة أمتار، معلنا أنه حان الوقت للبدء في تنفيذ المشروع، متأملا البنايات المطلية بالأبيض. مقرات الإدارات الهامة، هنا. عندما تتزلزل. تنحدر هي الأولى. تتناثر أوراقها مع الغبار، فوق سيدي مسيد.

- هل سمعت أو رأيت في الدنيا شيئا مثل هذا؟.

- ماذا؟

- أنظر؟

- نادي الكرة الحديدية في الأسفل. هذا مدخله. ما به؟.

- إنه خال. لا لاعب ولا جالس. ولا أي عضو.

- وما في ذلك؟

- حال. يا الطاهر بن علي. أسمعت أن ناديا للكرة الحديدية لا يبيع خمرا؟

حال يا الطاهر بن علي. كل يوم يمنعون مقهى من بيع الخمر، فيهجرها صاحبها وزبناؤها الشعب يشرب، والشعب يبيع. والشعب لا يرى مانعا، والمسؤولون يتملقونه، بالتظاهر بالدفاع عن اخلاقه وعن دينه.

- ليفعلوا ما يشاؤون، فالكمية المشروبة، ستظل تشرب إلى يوم القيامة.

- تشربون " الرهج".

علق على حديث شخصين، مرا به، دون أن ينظر إليها، وواصل سيره. شعر بأنه لم يعد ينحدر فرفع بصره. صعدة صغيرة، ثم انحدار متواصل.

- هذه "لابريش". أتناول كأس ثلج، وأضبط قائمة بأسماء أقاربي أستعين بها على تذكرهم، فأتصل بهم بالترتيب المكاني، فلا أضيع الوقت في التجوال في هذه المدينة المرعبة.

غمرت أنفه رائحتان متمايزتان. التفت إلى اليمين، رائحة الدخان. الريح غريبة. مزبلة بولفرايس، تشتعل في اطمئنان وهدوء. الأشباح الشيطانية في غليان وسطها رائحة التعفن، سوق الخضر والغلال بالجملة، في الأسفل، تحت الساحة. العربات الشاحنة، رابضة فيها. في انتظار إفراغها أو شحنها. هذه علامة أخرى على أن المدينة، مرتبطة بغيرها. فوق السوق الساحة الكبرى، بشمسياتها الزاهية، وبمقاعدها المختلفة الألوان، وبمناضدها المتغايرة الصنع.

الساحة تغلي. الغادون الرائحون أكثر من الجالسين.. أكشاك الثلج متزاحمة بشكل مخجل. عناوينها، مهما دلت على جهل أصحابها، فإنها تدل على انتهازيتهم. "مثلجات شريعة". واحد في المليون من السكان غير ولاية العاصمة يعرف معنى الكلمة، أو يربطها بجبل الشريعة. حتى شريعة تبسة ليست شعارا للثلج أو الجليد. "جزيرة الجليد". لعله قصد البحيرة، لكن ما علاقة الجليد برسم إله اليابان الذي يفصل المضاف عن المضاف إليه. "جليد سيبيريا". هذا معقول، لو

لم تكن سيبيريا. تحت حكم الشيوعيين. "مون بلان" هذا اسم موروث ما في ذلك ريب. "القلية" نسبة إلى قرية القل. هذا تعمد صارخ على الجهوية، وإلا ما علاقة قرية القل الواقعة على البحر، بالجليد، لو نسبها إلى إحدى بلدياتها لكان معقولا.. "تامالوس"، أو "الزيتونة"، أو "عين قشرة". "مرحبا بكم". لو وضع لفظه تعالوا بدلها لكان أفضل، وإلا ما معنى بكم هذه. "نجمة الثلج". كلام لا معنى له. أولئك الذين لم يضعوا عناوين لأكشاكهم، ربما خشوا أن يتورطوا مع الثلج أو الجليد، حتى ما إذا جاء الشتاء، لم يستطيعوا ممارسة تجارة أخرى.

خلف الساحة، تقوم بناية منفردة عليها عبارة قصر العدالة، تعلن أنه مهما يكن من أمر المدينة، فإن هناك من يحكمها، ويهمه أن يشعر الجميع بوجوده.

عليهم اللعنة في الليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى، إن كانوا يعرفون معنى للعدالة، هم الذين يخططون للاستيلاء على أراضي الناس.

إلى اليسار البريد. المدينة إذن وثيقة الصلة بالعالم. إذا ما تحركت الصخرة من تحتها، وزلزلت زلزالها، يعلم بها العالم، ويسرع لنجدة ساكنيها.

لن يعثروا على حي فيها.

الزلزال هنا سيكون أبشع زلزال عرف. شيء عظيم. تذهل كل مرضعة عما أرضعت. تضع كل ذات حمل حملها. يسكر الناس دون سكر. تهوي البنايات إلى القعر مثقلة، تنفجر قوارير الغاز. وتعلوا ألسنة النار.

آه. الشيء يثقل في صدري، ورأسي، وعروقي.

ما كان يليق بي أبدا، أن أستسلم لوهم الزلزال، ينمو في فكري. كل شيء قضاء وقدر ولا راد لقضائه جل وعلا. الأعمار بيد الله، والله لطيف، وهو أعدل العادلين. أتناول كأس ثلج وأضبط قائمة في أقاربي الذين يمكن أن أثق بهم. وأنطلق لإنجاز مهمتي.

الدنيا تغلي. تموج. تغلي تموج. أربعة شوارع كبرى تدفع وتبتلع. الساحة تبتلع وتدفع. العربات هاربة. الصفوف الطويلة في انتظار الشاحنات. العربات اليدوية نازلة بصناديق الخضر والغلال المباعة، تتقدم الشيوخ والعجائز والأطفال، منحدرة نحو سيدي مسيد، أو الحامة، "يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون".. صدق الله العظيم.

يوم تقوم القيامة، يخرج صاحب الدابة. دابة ذيلها في المشرق، ورأسها في المغرب. عليها قدر مثل الأرض سبع مرات، فيها ماء يغلي، يمد صاحب الدابة يده ويتناول أصحاب الأفعال السيئة ليقذف بهم في قدره..

أبدأ يا صاحب الدابة بسكان قسنطينة الجدد، الذين يثقلون كاهل صخرتها، ويتسببون في زلزالها. أبدأ بكل صاحب بدعة يا صاحب الدابة.

أستغفر الله. هذه خرافات عجائز ما كان يجوز لها إطلاقا أن تقتحم ذهني.

- هل تشتري يا عمي؟

التفت فوجد شابا في السادسة عشرة، يرتدي بدلة متهرئة زرقاء، يحمل عود سمار فيه خمسة رؤوس من السلطة. تأمله، ولم يجب على سؤاله.

- أتشتري يا خويا؟

سأله شيخ هرم، يحمل في ذراعه صندوق ورق، فيه أكياس نيلونية ملأى بالنقيع.

يبيع النقيع في الصيف. كل شيء منسجم مع بعضه في مدينة التناقضات هذه.

- هيا اشتر مني، حتى أتمم هذه الأكياس لأجني ثمن عشائي وعشاء عجوزتي. قررت اليوم، إن ربحت ثلاثة دينارات، أن اشترى موسى حلاقة. الموسى القديمة

رميتها اليوم. ستة أشهر وأنا أحلق بها. لم تعد تقص. حتى الزبدة.

- اليوم جمعة. صدقة لله يا مؤمنين.

قالت امرأة كفيفة في الخمسين، عليها فوطة حمام مجعبة باهتة الألوان.

إسرائيلية دون شك، هرب المبصرون من بني قومها ولم تعرف الاتجاه الذي هربوا فيه.

- أهلا وسهلا! أهلا وسهلا !

غمره الصوت، بينما تقدم منه كهل على كتفيه سترة منامة، عاري الرأس، حليق الذقن، متسخ السروال والقدمين. لم يكتف بمصافحته، وإنما عانقه.

- يبدوا أنك لم تتذكرني؟ ألا تتذكرني ! ألست أنت .. إنك قادم من العاصمة ما في ذلك شك. أنا عمار البناء. كنت في بوزريعة، وفي العناصر وبالكور، وحسين داي. لقد عرفتك. رأيتك هنالك. أنا في قسمطينة

والحال متردية كما ترى. اشتغلت في مسجد الأمير عبد القادر، ثم وقعت مشاكل وأدخلونا السجن. قهوتك عليّ. ولو أن اليد قصيرة والعين بصيرة. أريد أن أسألك. أنا أسكن قريبا من هنا. أنا وزوجتي وبناتي وأخت زوجتي. الحق، أنا عاطل عن الشغل، وفي حاجة إلى نصف لتر من الزيت. هيا نشرب قهوة في منزلي. ستفرح بناتي وزوجتي وأختها. بناتي واحدة في العشرين وأخرى في التاسعة عشرة، وأخرى في السابعة عشرة أما أخت زوجتي ففي الثانية والعشرين. ماذا بوسعنا أن نفعل يا أخي !؟ هذه متطلبات الحياة. الطبيب يطلب والصيدلي يطلب، وهذه كراسة، وذلك حذاء وهذا نور، وهذه قارورة غاز، وهذا خبز وملح وزيت وما إلى ذلك. "الشر يعلم السفاطة والعري يعلم الخياطة". قهوتك عليّ. قهوتك عليّ.

ظل الشيخ بوالارواح ينصت في ذهول، بينما راح عمار البنائي يقدم له نفسه بسرعة، ولما حاول أن يجره من يده، انحنى متسائلا:

- ماذا تقول؟ أنت من تكون؟

- قهوتك عليّ. هيا معي إلى منزلي وستفرح بك بناتي وزوجتي وأختها.

خسئت يا لعينا، يا كلب بن كلب. يا ديوثا. أتقول هذا الكلام لي أنا. لا حول ولا قوة إلا بالله. لي أنا. شيخ الستين، وحافظ كلام الله، وخريج الزيتونة، يقال لي مثل هذا الكلام، في مدينة ابن باديس ويوم الجمعة. ألا تبت أيديكم.

يا سيدي مسيد. لها يا سيدي مسيد لها. حركها بهم وبمنكوبهم.

تجمهر الناس حول الشيخ بوالارواح، بينما كان عمار البناء يثب خارج الحلقة، ويضع يده في جيبي سترته وينهمك في التفرج، مشدوها.

زلزلة الساعة شيء عظيم. تذهل كل مرضعة. يبدو الناس في حالة سكر كبير. يخرجون من الأجداث سراعا.. ترهقهم ذلة. ذيل الدابة في مشرق الشمس ورأسها عند مغربها، القدر فوقها تغلي، والبخار يصاعد منها، وصاحب الدابة يرفع بالحفنة ويقذف. لن يختار. لن يجد ما يختار فالكل آثمون. آتي المنكر والساكت عنه.

المادة السائلة تذوب في القلب. الروح تثقل. الحلق يجف. الأرض تميد. تميد.

تخلص من الحشد المتجمهر حوله، بعد أن سكت، وسارع إلى داخل الساحة. قدماه ترسمان خطوطا متقاطعة، وبطنه وعجزه يتلولبان، ورأسه يرسم مرة نصف دائرة، ومرة دائرة كاملة، وذراعاه تتدليان، بينما العرق يتصبب من وجهه والغضب يرقص عضلاته.

قصد آخر الساحة، وتهالك تحت شمسية مزركشة، ملتفتا إلى الغرب، سارحا ببصره خلف التلال، متجاوزا مزبلة

بولفرايس، رائحة دخان المزبلة تقتحم صدره، عفونة سوق الخضر والغلال، تكدر روحه.

حاول أن ينطلق، متخلصا من كل ما حوله، ومن المدينة ومشاكلها، والحكومة ومصائبها، والزلزال وصاحب الدابة.

من هنالك تمتد سلسلة الأطلس حتى مدخل سهل متيجة. على الحكومة إن أرادت أن تعطي الأرض للشعب، أن تسوي له هذه الجبال، وتقسمها عليه.

ما الفائدة من أصدقائها الروس، إن لم يسووا الجبال، ويبنوا لها السدود ..؟

الجبال خلقها الله أوتادا تشد الأرض.

لتفتح طريق فرنسا وأوروبا، وتعقم النساء والرجال، لتحد من النسل إذن.

هذا حرام.

وهل هذا أكثر من الحرام الذي نقدم عليه في كل يوم، والذي نعيشه من الصباح حتى المساء.

- ماذا تتناول يا بابا ؟.

استيقظ من سهومه، ورفع عينين ثقيلتين نحو النادل، وفكر لحظة، ثم تمتم:

- " كريم " بالشوكولا.

- لا. عندنا الثلج فقط، والا المشروبات.

- هات لي ثلجا. وكأس ماء بارد. بارك الله فيك.

استرعى انتباهه، طرق يعرفه جيدا، فالتفت إلي مصدره يتأكد منه .. الحجر وصل حتى هنا، عليك اللعنة يا ابن خلدون. عليك ألف لعنة. فهذا مكان لإراحة الأعصاب، والتقاط نسيمات، وتناول مبردات، وليس مكانا للعب الحجر.. يبدو أنهم لن يتخلوا عنه، حتى حين تكون الصخرة متحركة متذاوبة.. كيف وصل إلى هنا؟ من يجلس هنا؟ ما الذي حول مطعم بالباي الفخم إلى ما هو عليه؟ لقد أقاموا في كل شبر من المدينة الحياة التي كانوا يحيونها في قراهم

وبواديهم. لقد أسسوا في كل ركن من قسنطينة، قرية أو دشرة. إنه لا علاقة لأحدهم بالآخر، سوى البيع والشراء، ولا يضير أحدهم، أن يمارس حياة قريته، سواء هنا أو في أي مكان آخر. كل ما يحيط بهؤلاء، من مظاهر عظمة وعزة مدينة قسنطينة، شكلي بالنسبة لهم، هذا هو سبب كراهية الحضريين للآفاقيين، وهو جد وجيه، وأنا لا يهمني من أمرهم شيء. لو لم آت إلى هذه المدينة المبنية على صخرة مهلهلة، لقضاء أمر هام.

آه. يجب التعجيل بوضع القائمة في الأقارب الذين يمكن أن يكونوا أحياء، والذين يمكن أن يكونوا محل ثقة.

أخرج القلم وكناشه، قلب أكثر من ثلثي صفحاته الصغيرة، حتى عثر على نصف ورقة غير مسودة، بأرقام الدخولات السنوية من الأرض والمخروجات الشهرية والسنوية، من أجرته، ومن اثمان الحبوب، طيلة الأربع سنوات الأخيرة.

حملق مدة، يحاول تذكر اسم قريب، ثم تخلى عنه، وراح يقرأ الحروف والأرقام الدقيقة في النصف الأعلى من الصفحة .. ثمن أربع بطاريات كهربائية مستديرة من الحجم المتوسط، للمذياع، زائد في مخروج شهر جويلية، عن شهر جوان،

ظل يفكر، أول من يقابلني حتى الآن، صهري، أخو زوجتي الوحيد، آه. ما اسمه، ما اسمه؟آخر مرة، كانت يوم جاءني يستقرضني مبلغ عشرة آلاف فرنك قديم. قال ليشتري بها، لوازم الحلاقة، فقد قرر أن يكون حلاقا في سباط الرصيف. ينصب بين المقاهي منضدة وكرسيا، ويتكل على الله مثله مثل غيره.

حملت عصا، وصرخت فيه:

- اسمع، يكفي أنني أعيل أختك. لا أريد أن أراك عندي مرة أخرى. أغرب عن وجهي، يا وجه النحس.

كان في العشرين. احمر وجهه. اضطرب. حنى رأسه، خرج في حين هتفت أخته:

- ابن أبي وأمي. هذا عيب.

- العيب في السرقة، والطمع في أموال الغير.

لماذا لا ينخرط في الجيش الفرنسي.

تذكرت. تذكرت. عمار. اسمه عمار. بلغني بعدها أنه حلاق في السباط، ولم أدر ما كان مصيره بعد اندلاع الحرب.

عمار حلاق في السباط. خط، وهو يتمتم، يكون إذن في رأس القائمة، اعتقد أنه نسي الحادثة البسيطة، ولم يحقد عليّ، لكن لماذا لم يتصل بنا، طيلة هذه الفترة؟ حتى أخته نسيته. إذا ما طمع مرة أخرى في الاستقراض، فسأقرضه خمسين دينارا. سأمنحها له. هبة. صدقة، تكفيرا عن الموقف الأول، القاسي بعض الشيء على ما يبدو.

استغرق مرة أخرى في البحلقة، يعصر ذاكرته. قابله ابن عمه، اسمه. اسمه على رأس لساني.

كان يناديني، عمي، امسكني من يدي – هذه ثلاثون سنة، وقادني إلى مقهى في بارادو. أجلسني، وطلب لي شايا.

- اسمع يا عمي. أريد أن أستشيرك، وأن أستعين بك في نفس الوقت.

- مسألة النقود، يجب أن لا نخوض فيها.

- أصغ إلي أولا. انظر قبالتك إلى ذلك المتجر.

- هاه، حانوت لبيع الغرابيل، اعرف صاحبه، ما به؟

- إنه للبيع.

- وما دخلي أنا؟

- يطلب مائة وخمسين ألفا.

- ملكية ؟!

- لا بيع عتبة. كراء، أربعمائة دورو، كراء الشهر.

- وماذا أفعل أنا بمتجر الغرابيل؟.

- تقرضني هذا المبلغ، حتى الصيف القادم، أسدد لك النصف من محصول الأرض، أما النصف الباقي فسأدفعه لك أقساطا شهرية.

- وما هو الضمان مقابل نقودي؟

- نحن أبناء عم، ولا نحتاج إلى مثل هذا!

- لكن يد المنون تحصد كل يوم، ومن أدرانا. على الموت وعلى الحياة.

- نكتب وثيقة.

- لا تكفي، ففي حالة إفلاسك، لن يعوضني دخولك السجن، نقودي.

- أنا مالك أرض، لا تنس هذا يا عم. ولولا نفقات بناء السكن بالقرية، لما كنت احتجت لمثل هذا المبلغ.

- ترهن أرضك.

- أو نصل إلى هذا الحد يا عمي ؟!

- على الموت وعلى الحياة. على النجاح وعلى الإفلاس.

- نصف الأرض إذن.

- أدفع لك ضعف ما طلبت. ثلاثمائة ألف.

فكر قليلا، ثم تنهد، وقادني من يدي إلى الموثق.

صادف أن كانت السنة عجفاء في كامل البلاد، لم يجن أحد حبة، ولم يحتج أحدا غربالا. عاجلته، استعنت بأهل الحل والربط. ربحت القضية، خرج العدل المنفذ مع الجندرمة، وطرده من أرضه. مائة هكتار جيدة، نصفها على الماء. حاول في السنة التالية استردادها، لكن المسألة لم تكن عبث أطفال. نجح في تجارته، ولم يمت جوعا على كل حال، لا أظن أنه لا يزال يحقد عليّ. نحن من دم واحد، وما

ضاع من الطول ربحناه في العرض، وسمننا في دقيقنا كما يقال.

تذكر اسمه. عبد القادر. على كل يجب أن أكتب أمام اسمه عبارة: خطر.. فلعله لا يزال يحقد، ولعله يغرر بي. لا أمان في دار الأمان.. وإذا ما طلب مني استرجاعها؟. لا. كلام صبيان. المسألة مفروغ منها. أمنحه على الورق جزءا من أرضي، شرط أن لا يناله إلا بعد موتي. وأن لا يبيعه أو يرهنه لأجنبي عن العشيرة.

عندما تطلقها لا تقترح عليها من تتزوج.. يقول المثل.

لكن الاحتياط ضروري، فكما أضاعها المرة الأولى، يضيعها مرة ثانية. ثم إن الأرض أرضي، وأنا أدرى بها، حتى وإن كنت ميتا.

أستغفر الله. الأرض لله، يرثها من عباده الصالحون.

- بابا. هيا. تمسيحة أو تلميعة لحذائك.

- لا. أغرب عن وجهي. دعني.

رد الشيخ عبد المجيد بوالارواح، على صبي في الثالثة عشرة حافي القدمين، ممزق السروال، عليه مريول باهت رسمت في صدره وظهره صورة "غيفارة"، عيناه زرقاوان، وجهه جميل، شعره عل كتفيه، أصفر لامع..

لو كان ولدي، لألبسته الدمقس والديباج، ولأسكنته السرايا، ولزوجته بسبع نساء، وعشرين جارية، ووهبته ألأرض، فلا تطمع فيها الحكومة.. تجري الرياح بما لا تشتهيه السفن، ويوجد في النهر ما لا يوجد في البحر، بل ويوجد في غدير أو مستنقع ما لا يوجد في النهر.

- دينار فقط يا عمي، تمسيحة متقنة.

أعاد الصبي عرضه. ابتسم الشيخ عبد المجيد بوالارواح ابتسامة ذابلة، سرعان ما تحولت إلى تكشيرة، عندما تقدم الصبي منه، وزمجر:

- مسحكم الله من أرضه الطيبة يا نسل الإثم والرجس. أغرب عن وجهي.

ولّى الصبي هاربا، حالما رأى وجه الشيخ عبد المجيد بوالارواح يصفر ويحمر ويزرورق، والرجفة تعتري عضلاته والشرر يتطاير من عينيه.

ابتعد بضعة أمتار، ثم توقف. قرر أن يتأكد من أمر هذا الشيخ، وهل أن هذا الغضب الذي اعتراه، بسبب العرض الذي قدمه إليه، إذا كان كل منتعلي الأحذية مثل هذا الشيخ فسنموت جوعا. التفت وراح يحدق فيه.

-استغفر الله. ما ذنب الصبي حتى أصب عليه كل هذا الغضب. إنه جميل. ما أروع جماله.

تمتم الشيخ بوالارواح، ثم ابتسم. كانت ابتسامته رغم قصرها، صادقة. لقد تراءى له الصبي، في ديباج، على رأسه شاشية حمراء، وفي قدميه حذاء أحمر لامع، وفي يده محفظة جلدية، وفي عنقه ربطة فراشية. في معصمه ساعة ذهبية.

الولد العزيز.

طالما انتظره، وطالما حلم به، هاهو يأتي كاملا. ينزل هبة من عند الله، تامة غير منقوصة. يسكن السرايا، ويلبس الديباج، ويتزوج سبع نساء، ويتسرر بعشرين جارية. يعمر ويعمر. ولن تطمع حكومة في ارضي.

انجذب الصبي للبسمة، فتراجع. وقف قربه، وقدم الصندوق في يده، دون أن يهمس بتقديم عرضه، تأمله الشيخ لحظات ثم تنهد هامسا:

- ماذا يشتغل أبوك أيها الصبي الجميل؟

- أبي مات في الغابة. أسقط طائرة وقتل جنرالا ومات في الغابة. حش رشاش طائرة ساقية، فأسقطها، وظل يقتل العسكر حتى سقطت قذيفة على رأسه ومات في الغابة. أمي تزوجت مع فحام، أمسكه حراس الغابة يشعل الحطب فأدخلوه السجن ولم يدعوه يرجع. أنا عند جدتي، مع عمي. عمتي تتزوج كل ليلة رجلا، يترك لها خمسة دينارات ويذهب بلا عودة.

تمسيحة جيدة، لحذائك بدينار فقط يا جدي.

-اذهب عني يا شيطان، اذهب عليك اللعنة، أنت وأمك وجدتك وعمتك وحكومتك.

وجد الصبي في الطاولة المجاورة حذاء متسخا، فلم يستطع صاحبه أن يتملص منه. وعاد الشيخ بوالارواح إلى ورقته، يواصل ضبط قائمة الأقارب.

آه. كدت أنساه. حفظ الستين في الرابعة عشرة. قرأ الآجرومية والرسالة في الزاوية، ثم زهد. أعلن نفسه تابعا للطريقة الشاذلية، وانزوى، يعلم القرآن، ويكتب الرقى، ويتلقى الزيارات. عيسى ابن خالتي. لا يعرفني، وحتى إذا ما عرفني، فلن يتذكرني. تركته صغيرا في الثامنة عشرة. هذا ثقة. ويجب أن يكون من الموثوق فيهم جدا. زاهد، أي شيء خير من الزهد؟ إن ما ينقص حياة القرن العشرين، هو الزهد. أكتب له ثلث أرضي. ليس بيني وبينه شيء، رغم تسجيلي لأرضه باسمي دون علمه، ضممت خالتي إلي، ولم تلبث أن ودعت الحياة. كانت دائما مغمومة. ورغم المعارك التي كانت تدور بيننا وبين أصحاب الزوايا والطرق

والخرافات. كان حدسي صادقا، فقد قلت مرة في قلبي، حين كان ابن باديس يهاجمهم بحماسة.. هم ولا الملحدون الكفرة، الذين لا منفذ لقلوبهم.

عيسى إذن.

خط الاسم، وكتب أمامه عبارة: ثقة. ثم عاد إلى التأمل، والتذكر.

الرزقي البرادعي. حتى هو قريب. ابن عم أبي، شخص فاضل. ملتزم حدود نفسه، رغم ميوله إلى الخمر والغلمان. ليس بيني وبينه مشكل يذكر. تزوجت أخته، وطلقتها بعد ثلاث سنوات. هذه الحادثة التافهة، يكون قد نسيها ما في ذلك ريب. حتى أخته إن كانت مازالت على قيد الحياة، ولم تتزوج، أسجل لها كمية من الأرض. أشترط عليها أن لا تزوج. إن أرادت أن تعود إلى المنزل فلتعد. ما يطعم رأسين، يطعم ثلاثة. ربما يكون للرزقي أبناء أضيفهم إلى القائمة.

بقدر ما يكثر عدد الورثة والمستحقين، بقدر ما تعمى الحكومة.

- على وجه ربي يا مؤمنين.

- الله يفتح.

رد على السائل، دون أن يرفع رأسه، وواصل استجداء ذاكرته.

- اللص. أمسكوا اللص. خطف محفظتي وهرب. أمسكوا اللص.

ارتفع صوت قرب الشيخ عبد المجيد بوالارواح، بينما ارتفع ضجيج سقوط المقاعد الحديدية، ووقع أقدام.

تجمهر الناس واختلطوا ببعضهم، وارتفعت أصوات الجميع، تنادي بالقبض على اللص، وظل صاحب المحفظة المختطفة يلطم وجهه:

- خمسمائة دينار، راتبي الشهري وثمن خبز أطفالي. أنا أخوكم. أمسكوا اللص.

- اذهب إلى محافظة الشرطة وهنالك يبحثون لك عن سارق نقودك.

قال واقف وأضاف آخر.

- "يخاف على الشجرة ولا يخاف على قصاصها".

سرعان ما همدت الضجة، وعادت الأمور إلى نصابها، وحنى الشيخ بوالارواح رأسه.. حتى اللعين ابن أخي أسجله في القائمة. الطاهر. ما أن مات أبوه حتى تشرد. أربع سنوات قضاها في الجيش الفرنسي، وثلاث في السجن، وخرج ليشتغل نشالا في رحبة الجمال، باع لي نصيب أبيه من الأرض، غير آسف، وانهمك في الزواج والطلاق، والسكر، والسرقة، والدخول إلى السجن. إذا لم يعدموه، أو يحكموا عليه حكما مؤبدا، فلن يكون سوى في رحبة الجمال.

الطاهر.

خط الاسم، ووضع أمامه علامة استفهام وسط دائرة، وأعاد كناشه إلى جيبه، ثم أخرج ساعته.

-الثانية والنصف! حان وقت العمل. ثم هاته الرائحة المتعفنة التي تشتد أكثر فأكثر.

هم أن ينهض، إلا أن صوتا ارتفع إلى جانبه، بحكاية غريبة، جعله يواصل الجلوس، مصغيا بانتباه خاص:

- في مزبلة بولفرايس، البارحة جرى ما جرى. ترى المزبلة من هنا. ها هي أمامنا تتنهد.

-نعم أراها. إنها فعلا تتنهد.

- وصلتنا الأخبار متأخرة، لكن استطعنا مع ذلك أن ننقذ ما يمكن إنقاذه.

- لكن ما جرى؟

- كانت إحدى شاحنات البلدية تحمل علب مصبرات فاسدة، صودرت من مختلف المتاجر، ما أن أفرغت الشاحنة حمولتها، حتى هجم عليها "هاجوج وماجوج".

- وما "هاجوج وماجوج" هذا؟

- خلق كثير من سكان الأكواخ. شيوخ وكهول وأطفال، ذكور وإناث، يحومون طوال السنة حول مزبلة بولفرايس، يلتقطون الفضلات والمرميات، العظام التي يلقيها الناس، يعيدون هنالك طبخها في الماء لتطلق لهم رائحة الآدام، عالم آخر هنالك، بتجاره وسماسرته، وزعمائه ومستغليه ونظامه وأمنه، يقيمه العراة.

- هذا في مزبلة بولفرايس؟.

-نعم. على أربعة كيلومترات من هنا. هنالك. انظر إلى الأشباح تتحرك وسط الدخان.

-ماذا جرى البارحة؟

-آه. هجم الهاجوج والماجوج يتخاطفون العلب، يترافسون ويتمارسون، حاول الزعماء والسماسرة أن يوقفوا الرعايا، لكن دون جدوى. اشتدت الأزمة حتى تطورت إلى قتال استعملت فيه الحجارة، ثم العصي، ثم الخناجر. ثم البارود.

-حتى البارود؟

- نعم، وبأي شيء، الزعماء زعماء؟ عندما وصلنا وجدنا عشرين قتيلا، وسبعين جريحا.

- حالة ياالطاهر بن عليّ.

- حالة ياالطاهر بن عليّ.

3- سيدي راشد

- تركهم الله، وتركم، رمادا في مزبلة، أعظم مليون مرة من مزبلة بولفرايس، بجهنم خالدون فيها أبدا.

قال الشيخ عبد المجيد بوالارواح في سره، وهو يغادر مقعده، ويبتعد عن جاريه اللذين، واصلا حديثهما، عن رواد المزبلة.

خرج من بين المقاعد والمناضد، ووجد نفسه في ملتقى الطرق. على اليسار، شارع زيروت يوسف، بعده، شارع لا يدري عنوانه.. بعده شارع التاسع عشر من ماي، نهج فرنسا السابق، بعده العربي بن المهيدي، ثم مسارب سيدي راشد، وعلى اليمين تماما، المنحدر نحو ساحة الشهداء، ثم التفرعات والانطلاقات. صعودا وهبوطا، يمينا وشمالا، وفي كل الاتجاهات.

أهمية الطرقات في قسنطينة أعظم من أهمية المباني والمساكن، فهؤلاء المرضى بالسير، وكأنهم في سجن أو في إقامة جبرية، ماذا يكون مصيرهم لو لم تكن المدينة مخربة بهذه الطرقات وإن كانت في معظمها ضيقة ملتوية؟.

في حالة حدوث الزلزال، ستكون هذه الطرقات وهذه الساحات، أخاديد وشقوقا عظيمة.

لا. لتبتعد فكرة الزلزال عن ذهني.

واجهته قافلة من الروائح. استنشق رائحة أدمغة مشوية، ثم رائحة قشور ثمر الصبار، ثم رائحة بول، ثم رائحة عقاقير كيمياوية، ثم رائحة عطر، ثم رائحة آباط. ثم رائحة أقدام نتنة. دفعه أحدهم بكتفه من جنبه الأيمن. تمايل يسارا فرده آخر. حاول أن يمر فوجد الطريق مسدودا.

- اسمح لي يا بويا.

طلبت منه امرأة تلتحف السواد وهي تدفعه من بطنه بمرفقها. التفت يتبعها ببصره، متعجبا لجرأتها ولفصاحتها.

داس شخص قدمه، أسرع يسحبها. شعر بالألم، وبالضيق والاختناق، يجب أجراء تدريبات خاصة على السير في قسنطينة. المدينة تحتاج إلى رواد كالقمر.

- قبل أن أقتحم سيدي راشد، أمر على السباط لأرى "عمار" صهري. لعل منضدته تحولت إلى متجر. قد يكون ربح، واشترى صالون حلاقة كبيرا. بل لعله قفز مع القافزين غداة الاستقلال، واستولى على صالون فخم...

هذه الجهة كلها تابعة لسيدي راشد، وهي قسنطينة الحقيقية.

ايه. نزل باريس. النزل الكبير. المقاهي العظمى الثلاث المشرفة على الساحة. هنا كان الملتقى. الموظفون المسلمون. كبار الفلاحين والمعمرين. الأغوات والباشغوات. كبار أصحاب الأعمال والتجار. هنا كان الدخول ممنوعا على الرعاع. كانت الهيبة وحدها تمنع الأهالي من الولوج. ستائر البلور والحرير ترفرف، وروائح عطور باريس تعبق.

والندل في هيئات وبدلات أكثر جلالا ورهبة من هيئات وبدلات ضباط العهد.

- أتشتري يا عمي.

تأمل البضائع المعروضة عليه، فقابلته يد تتخال المارة بديك رومي. ابعد ركبته، حتى لا تتعرض بدلته للتلوث. استنكف، واندفع إلى الأمام متجنبا الديك الرومي وصاحبه.

- بثمن بخس. بثمن بخس. هيا. هيا.

أغراه العرض، فألقى نظرة. مكانس حلفة بمختلف الأحجام..

صعدت الحرارة إلى كامل بدنه. شعر بالاختناق والارتخاء. الصدر يثقل. المادة السائلة تسري متذاوبة شيئا فشيئا.

في حالة الزلزال، تتحول هذه الساحة إلى بالوعة عظمى، تدفع غربا وشمالا إلى سيدي مسيد، وتدفع شرقا وجنوبا إلى سيدي راشد. إنها شيء عظيم. تذهل المرضعة عما أرضعت

وتسقط الحامل، وتدوخ الناس. صاحب الدابة حين يمر على المدينة، يضطر لحمل ساكنيها الآثمين كلهم بلا تمييز، حتى الرضع منهم، يضطر إلى حمل المباني أيضا، العمارات والفيلات والأكواخ.

يحمل قسنطينة في حفنة واحدة.

قويت روائح المأكولات، عندما اقترب من شارع بالمهيدي منبعثة من اليمين إلى جانب رائحة البول. أدمغة مشوية. فلفل مقلي. بيض مسلوق. كباب. ملوخية. بطاطس مسلوق. كفتة. بول شائط. القلب ينتفخ مملوءا بالدرن والخز. المقاهي معرض لأصناف السكان ولحرفهم وتجاراتهم. ما لم يتغير في هذه المنطقة، هو تكاثر مساحي الأحذية، وباعة الصحف، أما ما عدا ذلك، فلا نظير له، إلا في الحشر.

نصف مليون ساكن برمته، في المدينة. فوق صخرة.

ما الذي أتى بهم إلى هنا؟ أهي مدينة صناعية؟ لا. أهي مدينة تجارية؟ لا. أهي مدينة ثقافية؟ لا. بعد وفاة ابن باديس، وانقراطنا، لم يبق في قسنطينة علم أو ثقافة. لو

قصدوا عنابة أو سكيكدة أو العاصمة أو وهران أو مرسيليا أو بلجيكا، لكان ذلك معقولا. أما مجيئهم إلى هنا، فلا معنى له، سوى أنهم جاءوا يعجلون في قيام ساعة المدينة، بوسخهم وفسقهم وفجورهم. تمكن الشيخ بوالارواح، من اجتياز السيارات والمارة، والخروج إلى شارع بالمهيدي، أطلق العنان لساقيه تنحدران به.

- إذا لم أجده، فسأجد من يعرفه، إن تغير أناس الشوارع الرئيسية وتبدلت أنواع التجارات فيها، فإن أمثال هذه الأزقة والكهوف والسبابيط، لا يمكن بحال أن تتغير. أن تعرف تغيرا كبيرا، لا يسمح بالعثور فيها على أثر تاجر من تجارها. الدليل على ذلك بقاء بالباي، كناب في فم عجوز يشهد على أن الفم كان مليئا بالأسنان، وأن الوجه كان في يوم من الأيام، ممتلئا نضرا يجلب الانتباه.

تمتم، وهو يشعر باختلاط العواطف والخواطر في رأسه وصدره.

جميل جدا، أن تتحرك هذه الصخرة، فتذوب بمن عليها، فلا تجد الحكومة لمن تعطي الأرض.

لا. هؤلاء لا ذنب لهم، إنهم أحسنوا صنعا بهروبهم من الأرياف والقرى الصغيرة.

لم يبق من يطمع في الأرض، في البوادي والأرياف، ويكفي الحكومة هذا الحاجز يوم تقرر المساس بالنظام الرباني السرمدي.

لكن تجمعهم هكذا في المدن، بدل الجبال والوهاد، في شكل يؤكد للحكومة وجودهم صباح مساء، إثم كبير، لن يغفره إلا زلزال مهول.

الذنب أولا وآخرا، ذنب الحكومة. فمادامت عاجزة عن إقامة المصانع والمعامل، لماذا تسد أبواب أوروبا، وتضع العراقيل في وجوه قاصديها؟

إن الله، جلت قدرته، لم يخلق الموت، والحروب، والطوفان والزلازل، والأوبئة والطاعون عبثا.

لا تخفى عنه خافية.

إذا لم تتحرك الصخرة بالمدينة، فستتحول كلها إلى مزبلة بولفرايس، يتفارس ويتمارس فيها الناس والكلاب والقطط والفئران.

كثر الناس.

كثروا بشكل فظيع، إنهم يخرجون من كل زاوية، هذا يوم حشر.

طبعا. يكثرون، فالحكومة تجبر الأطباء على سعر معين يمكن الرعاع من العلاج، وتسهل لعملة الأرض التداوي بالضمان الاجتماعي الذي تمنحه لهم، تفكر، في تعميم مجانية العلاج.

لماذا لا يتكاثر هذا الشعب مادام يأكل ويشرب ولا يعمل شيئا، وإذا ما مرض يعالج بثمن زهيد؟

يسرقون من الأغنياء، ويبذرون على الحفاة العراة الرعاة.

كل إناء بما فيه يرشح. ولا رحمك الله يا ابن خلدون. عندما توقف الشيخ بوالارواح، في مدخل السباط، شعر ببصره يزوغ. وبمخه يهتز، وبالزمن ينقلب رأسا على عقب.

تجار الأغنام والأبقار والخيول "ببلوزاتهم" السوداء والبيضاء والوبرية وبعمامات الحرير الصفراء المزدانة بالخيوط الوبرية، وكبار السماسرة ورجال الأعمال، بالغباريات الرمادية والطرابيش الحمر، والعجوز "ايدير"، مالك الأرض والأنعام والنقود، إمبراطور العثمانية وقسنطينة، يجلس في الوسط، كأنما، هو يتربع العرش.

- مساء الخير، عمي ايدير.

- مساء الخير، يا عالم السوء.

- وكيف تقول عالم السوء؟!

- العلم والمال لا يلتقيان. ماذا تغديت؟

- ربع دماغ.

- ربع دماغ وجئت تقترض المال. أنظر إلي أنا. إمبراطور قسنطينة والعثمانية. لقد تغديت باللبن. حسنا فما دمت لم تتغد دماغا كاملا، فإنك تستحق الإعانة.

- أعلم أنك لا تخيب قاصدك.

- هذا جزء من عملي. أقرض بالفائدة، عشرة في المائة، والأرض ضمان. أيجوز لي أن أسألك ماذا تريد أن تفعل بدراهمي؟

- رغم تعلقي بالمال يا عمي ايدير، فإن العلم الشريف يمنعني من الكذب، وإذا كان لابد أن تعلم أطلعك.

- مع ثقتي فيك وفي أرضك كضمان، فإنه يسرني أن أعلم مصير نقودي.

- الحق يا عمي ايدير، أنني أقرضتها بعشرين في المائة.

- حوت يأكل حوت، الزيت من الزيتونة والسمك من البحر. أنت تستحق نقودي فعلا. تعال بعد قليل، وستجد المبلغ جاهزا.

- أشكرك كثيرا يا عمي ايدير.

- لا شكر على واجب يا بوالارواح. ما لا يباع ويشترى حرام. كيف حال صاحبك.

- إنه يواصل شرح القرآن الكريم.

- قل له، إيدير يقول لك، تخل عن بالحملاوي1[1] وإلا قذفت بك من "كاف شكارة"2[2].

اهتز دماغ الشيخ عبد المجيد بوالارواح. فتح عينيه. تأمل ما حوله...

مرت ثمان وعشرون سنة على الحادثة. رحم الله الشيخ إيدير. كان عمليا، إلى أقصى حد، لا يستطيع المتعامل معه إلا أن يتمنى له مزيدا من الثراء والجاه.

من خلف أهل السباط يا ترى؟

ماذا أرى أمامي؟.

1[1] -شيخ زاوية في العهد الاستعماري.

2[2] -جرف كبير بقسنطينة تروى حوله أساطير كثيرة.

من يكون هؤلاء القوم؟.

الكل على رؤوسهم عمائم صفر، الكل حليقو الذقون. الكل يرتدون البياض. الكل مرحون. حتى الشيوخ الكبار. يقين أن دشرة معينة، من "الميلية" أو "جيجل" أو "الطاهير" تحولت إلى هذا السباط.

لعل عظيما من عظماء القوم يقيم عرسا فاشترط على مدعويه أن يأتوه في زي واحد.

لقد كثرت البدع، وابن خلدون الخبيث، أديب أكثر منه مؤرخا.

الحمام في الأقصى. حلاق في حانوته وآخر على المنضدة عند بابه، الاثنان يعملان في انهماك ولا مبالاة. ثلاث مقاهي تعمل في تعايش سلمي وكأنها مقهى واحد، حتى أن المقاعد والمناضد مختلطة. هنا في الوسط، شخصان يحملان جببا بيضاء في ذراعيهما، ويحتسيان القهوة معا.

يوم الحشر، يوم زلزلة الساعة، حين تذهل المرضعة عما أرضعت وتضع ذات الحمل حملها، ويبدو الناس سكارى وما هم بسكارى، يأتلف الذئب والحمل، والقط والفأر، والأسد والإنسان، وكل عدو مع عدوه، وكل ضد مع ضده.

من هؤلاء القوم المتشابهو الثياب والهيئات، المختلفو الملامح والأعمار والقامات؟

- أريد فرقة لهذا المساء.

قال. كهل يرتدي بدلة أوروبية أنيقة، فرد عليه شيخ نشيط:

- ماذا عندك؟

- فرح.

- أعرف أنه فرح، فنحن لا نزور إلا أهل الأفراح.

- ختانة.

- كل شيء مبروك. لكن مع الأسف الشديد، لا يستطيع أحد أن يذهب معك قبل السادسة.

- ولم؟

- عندنا انتخاب النقابة. بعد السادسة أو غدا.

- ولكن.

- الله غالب. كل شيء له أوانه.

تقلصت المادة السائلة في صدر الشيخ بوالارواح فجأة، ثم تمددت بسرعة عجيبة. شعر بالرعشة تهز كيانه، ثم بالحمى تعتريه. قضقض أسنانه، وشبك أصابع يديه، وأحس بالحاجة إلى الجلوس، قابله مقعد خال فارتمى عليه، واستسلم للأنظار تنصب عليه، مستغربة اقتحامه لهذا العالم.

"إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين...".

قسنطينة زلزل زلزالها منذ مدة.

الزلزال إحساس هلع وذهول وسكر، يتطاول الحفاة العراة رعاة الشاة في البنيان وتلد الأمة ربتها...

صاحب الدابة لن يحتاج إلى القذف في قدره. سيطلب من المولى عز وجل أن يجعل له قسنطينة كلها قدرا، وقودها سبع شموس، وماؤها سبعة بحار، تغلي حتى يرتفع بخارها إلى سبع سموات، ثم يرتمي فيها سكان قسنطينة من تلقاء أنفسهم، تكفيرا عن الآثام الكبرى التي يرتكبونها.

قضوا على الكسّابين الذين بارك الرسول في عملهم، وأحلّوا محلهم الزرناجية والطبالين.

يا جهنم افتحي أبوابك وابتلعي هؤلاء القوم واجعليهم وقودا أبديا لك.

لم يكفهم ذلك، بل، ذهبوا بهم إلى أبعد حد، إلى الشيوعية الحمراء، فأنشأوا لهم النقابات.

النقابة ضد من؟، إن لم تكن ضد الحياة نفسها.

اللهم لطفك ورحمتك.

أين أنت يا عمي إيدير؟ بكيس النقود من الذهب والفضة. تتغدى باللبن وتتعشى بالتمر، وتضرب المثل في السعي والكسب.

أين أنتم، يا من كنتم توجهون كل قطعان الأغنام بعصيكم من هنا، من سباط الرصيف بقسنطينة البهجة.

يا سيدي راشد، يا صاحب البرهان، استجب لدعوة الحضري في مقهى النجمة: حركها بهم وبمنكرهم وفسقهم ونقابتهم. أقم البرهان يا ذا البرهان، فبدل الشر بالخير، والإثم بالتقوى.

ارتفعت فجأة، نغمة من "زرنة" تهتف إلى السماء بالظمأ والشبق. فخيل للشيخ عبد المجيد بوالارواح، أن ذلك إعلان عن قيام الساعة، فأغمض عينيه متمتما:

- اللهم اغفر لنا ذنوبنا، ما تقدم منها وما تأخر، وأمتنا على دين نبيك.

همّ أن ينهض وينصرف تاركا المكان وأهله، إلا أن تذكره للمهمة التي جاء من أجلها، في حر الصيف يقطع الميل بعد الميل، طوال تسع ساعات كاملة، جعله يعدل.

عمار صهري، لابد أنه صاحب محل الحلاقة هذا. لأذهب وأجلس عنده أفضل، لاشك أنه سيطلب لي مبردا يطفئ اللهب الذي في صدري. لا. لأسأل عنه أولا.

- أجئت من العاصمة يا أبي؟.

- نعم. لماذا تسأل؟.

- ألست من الاتحادية؟.

- أية اتحادية؟.

- اتحادية الفنون السمعية. إننا في انتظار ممثلها لإجراء انتخابات الفرع.

- لا.

قال الشيخ بوالارواح في صرامة، ثم تمتم:

- لا وجد الله لكم شملا، ولا أبقى لكم سمعا. تركتم الرعي والخماسة، وأشغال الحلفة والصبار، وحفظتم ألحان الشياطين، واقتحمتم المدن تغوون النساء والرجال بالفجور والمنكر.

- أتتناول مشروبا يا بابا؟

سأله النادل، فاستيقظ من سهومه، ورفع إليه بصره.

- نعم. مبردا. لكن قبل كل شيء، أعطني كأس الماء ذاك، فأنا ظمآن.

- تفضل.

صب كأس الماء في جوفه دفعة واحدة، وسوى نفسه على المقعد. شعر بنوع من الانشراح فراح يلتفت إلى من حوله.

كأنما أسس هذا البساط من اجلهم.

ثلاث مقاهي متقاربة. حلاقان. حمام. الشيوخ أكثر خفة عقل وأكثر اضطرابا من هؤلاء الشبان الذين لا تنم ملامحهم إلا عن الاطمئنان والاعتداد بالنفس.

لعل شعور الكبار، بأنهم من منبوذي الأمة وشعورهم بالخجل يجعلهم هكذا.

مهما كان أمر الكبار. وسواء أكانوا من المنبوذين أم من المحترمين، فإن معدنهم أنقى من معدن وجوه الروس هؤلاء.

هذا الشاب الذي يقابلني، يتظاهر بعزة الغني، وبرفعة العالم، وبوقار الحاكم. عليه اللعنة، الفاجر ابن الفاجرة. باي منطق يمكن التحدث مع هؤلاء.

لأفتح معه حوارا، حتى أرى أين يصب ماؤه كما يقال.

- اسمع يا ابني اسمع.

- أنا؟

- نعم أنت. تعال أسألك من فضلك.

- مرحبا.

قال الشاب مبتسما. ثم أدنى مقعده من مقعد الشيخ عبد المجيد بوالارواح الذي بذل جهدا في التغلب على عواطفه. اصطنع بسمة، وسأله:

- من أين أنت؟

- من الجزائر.

- لكن الجزائر شعوب وقبائل، عرب وبربر وأتراك، وغير ذلك.

- الجزائر شعب واحد يا أبي. الدم الذي لم يربط أبداننا، ربط ترابنا.

- حسنا، وماذا تمتهن؟

- فنان.

- ما شاء الله! وفي أي فن تختص؟

- في العزف. أعزف على الزرنة، وعلى القصبة.

- أين تعلمت هذا؟.

- في قريتي.

- وأين تقع قريتك؟

ابتسم الشاب، كأنما يشعره بأنه على علم بالكمين المنصوب له، وبأنه سيتفضل بإشباع فضوله، ثم أجابه:

- أنا من قرية العنصر. أتعرف أين تقع؟

- أعرف. قرب الميلية. وماذا كنت تشتغل قبل أن تصبح فنانا؟

- ماذا تريد أن تشتغل في العنصر أو في الميلية؟ أبي خماس، في أرض، صاحبها طبيب بالعاصمة، سنة ينال عشرين قنطارا، وخمس سنوات، لا ينال شيئا. أنا أقاطع من الصيف إلى الصيف. أشتغل أربعين يوما، وأبقى أنتظر أحد عشر شهرا. هل أسرق؟ هل أذهب إلى أوروبا؟ ماذا في إمكان مثلي أن يفعل، غير أن يحفظ الأنغام ويترنم بها؟ هكذا العرس بعشرين ألف فرنك، إلى جانب ما يسقط من هنا

وهناك من نقود الرشق، أقتسمها مع الطبال، والراقصة، ومع البركة.

- إذا ما أعطوك أرضا في العنصر أو في الميلية، تقبل؟

- أنا شخصيا لا. أما أبي، وإخوتي التسعة الآخرون وهم كلهم قادرون على العمل، فيقبلون بالأرض أينما كانت. في العنصر أو في عين البيضاء، أو في وهران. هل أنت من الحكومة أيها الشيخ؟

- نعم ولا. أنا مدير ثانوية في العاصمة.

- كيف لا؟. أنت الحكومة. أنت كل الحكومة. أتشرف بمعرفتك يا أبي. كنت جئت إلى العاصمة السنة الفارطة. كتبوا في شهادة النضال أنني مناضل، في حين أنني مسبل. لقد صلّحت الخطأ على كل حال.

- ولك شهادة النضال أيضا؟

- ولم لا؟ أنا بكل فخر مسبل. وفي الحق جندي، قمت بكل ما يقوم به الجنود، حتى الاشتباكات الكبرى ساهمت

فيها، غير أن عدم ارتدائي للباس العسكري، وفي الحق، اتصالي المستمر بالمدنيين، وقيامي بالمهمات داخل القرى والمدن، حكما علي بأن لا أكون إلا مسبلا في شهادة النضال.

- ولم لا توظفك الحكومة؟

- وهل في إمكانها أن توظف أربعة عشر مليون جزائري. ابني الأكبر دخل الثانوية هذه السنة. لقد تزوجت صغيرا، في الخامسة عشرة من عمري تزوجت.

سكت الشيخ بوالارواح برهة. فرقع أصابع يديه. ابتلع ريقه. فكر أن يدعو بالخراب والخصي لعازف الزرنة والقصبة، وأن يقول له، إذا ناله وأخوته شبر من الأرض، يبولوا على قبره، إلا أنه تراجع، خاصة عندما أعلن الشاب عن إصراره على دفع ثمن المشروب، إكراما لمدير الثانوية، وكل مديري الثانويات، فابنه انخرط في الثانوية، وسينال منحة من الدولة، وسيكون مهندسا، أو عالما في الموسيقى.

- إذا ما صار ابنك هكذا، فما تراه يكون ابن الغني وابن الطبيب والمهندس، ومن يبقى لصنع الفريك والسمن وجمع البيض وصنع الصوف؟ هكذا فجأة واحدة، من القعر، من أسفل سافلين إلى أعلى عليين. يا لها من وقاحة.

فتحت أعينكم دولة الشر هذه.

همّ الشيخ عبد المجيد بوالارواح، أن يقول لمحدثه، غير انه تراجع، اعتبارا لثمن المشروب المتكرم به عليه، ولكونه أقلية في هذا المكان وهذا الجو.

ظل الشاب ينتظر تعليقا منه، ثم ابتسم، معلنا عن تسامحه معه لعدم إعلانه عن أي دعاء يعين ابنه التلميذ على النجاح، أو على طول العمر.

- لو كانت ثانويتك في قسنطينة، لسجلته عندك يا أستاذ.

- لا. لا.

بادر الشيخ عبد المجيد بوالارواح يرد على مجاملة الشاب، ثم توقف فجأة، كأنما ندم. طعم مشروبه لا يزال في فمي، ثم إنني مازلت لم أسأله.

- أقصد. أعني. إن الأساتذة في ثانويتي كلهم شرقيون. من مصر وسورية والعراق، ولبنان، وتونس وهم يتغيبون كثيرا ولا يهمهم أمر أبنائنا.

- ولكن يا أستاذ.

- أوه، دعنا من هذا الموضوع. هل تعرف صاحب حانوت الحلاقة هذا.

- معرفة سطحية لا غير. أحلق عنده من حين لآخر.

- أبحث عن حلاق اسمه عمار. كان، هذه مدة، يحلق هنا.

- هذا اسمه إبراهيم على كل حال. ويوم جئت إلى هنا وجدته أمامي.

- ألم تعرف قط في هذا السباط حلاقا باسم عمار؟

- أبدا لا. اسأل الحلاق نفسه.

- فكرة.

علق الشيخ عبد المجيد بوالارواح، ثم نهض متباطئا. تسلل م بين المقاعد والمناضد، وتقدم وسط أنغام الزرنة المختلفة التي ما أن تنطلق حتى تخفت. التفت يتأمل بنصف عين، حلاق الخارج قبل أن يقف عند عتبة الحانوت الضيق..

هاه. واحد يحلق وأربعة ينتظرون. شغلوا الحانوت كله. اساله من هنا فقط، ورفع صوته:

- يرحم والديك. اسمح لي أن أسألك.

- تفضل يا بويا.

- عمار الحلاق. هل تعرف أين صار يحلق؟ كان هنا.

- لا يا بويا، لم اعرف حلاقا بهذا الاسم منذ جئت إلى هنا.

- ومتى جئت؟

- إيه. أنا أقدم واحد في السباط. بعد الشيخ نينو الدلال. هذه تسع سنوات منذ دخلت الحانوت، فقط، أما السباط فهذه عشر.

تسع سنوات. يعني من مطلع الاستقلال. من ليلته ربما، إثر خروج الإسرائيلي أو الأوروبي من الحانوت. ربما كان يحلق في زقاق من الأزقة على صندوق هنا في االمدينة، أو في أية قرية أخرى، وأثر طرفة عين، وجد نفسه في صالون حلاقة جاهز كامل التأثيث. وها هو يعتبر نفسه أقدم واحد في السباط، وابما الرصيف، وابما في قسنطينة، حضري من الحضريين الأوائل، سبق حتى الأتراك، اللعنة على تلك النظرة الوقحة التي يصوبها نحوي.

- وأين نينو هذا؟ فالحق أن عمارا الحلاق، كان هنا قبل الحرب.

- ايه. "تفكري يا امرأة لمن تسالي". اسمع يا بويا. الحياة كالماء الجاري. تتغير. وهذا السباط، عرف من يوم

الاستقلال إلى هنا عدة تغييرات. حاول السحرة أن يحتلوه فلم يلبثوا فيه سوى أقل من أسبوع، حاول الكسابة أن يستردوه فلم يفلحوا. حاول دلالة الذهب أن يحتلوه فلم يقووا. حاول جماعة من الاسكافيين احتلاله لكن كانت الخيبة نصيبهم. الخلاصة، حاول أصحاب جميع المهن والحرف أن يستقروا هنا، فلم يستطع النجاح منهم سوى هؤلاء. السباط لم يأت في ممر، بالإضافة إلى مقاعد المقاهي التي تسده، ولا يأتيه من يقصده لغرض من الأغراض، أخيرا رزقه الله بهؤلاء.

كأنما بني من أجلهم منذ اليوم الأول.

كان إبراهيم الحلاق يثرثر بمعلوماته التاريخية عن السباط، في حين اعتمد الشيخ عبد المجيد بوالارواح بذراعه على الحائط، وحنى رأسه في وجوم. كل شيء يبدأ من الصفر عندهم.

التاريخ يبدأ يوم يبدأون وينتهي يوم ينتهون.

لعل هذا هو تاريخ المدينة من يوم كانت. انتهت بانتهاء البربر وابتدأت بابتداء الرومان، وظلت تبتدئ وتنتهي بين البربر والرومان ومختلف الأجناس حتى جاء العرب. استأنفت تاريخها معهم حتى جاء الأتراك. انتهت وابتدأت، حتى جاء الفرنسيون. وهاهي تنتهي وتبتدئ من جديد.

إن الزلزال الذي يضع حدا لحياة هذه العاهرة لم يحدث بعد. وحين يحدث ينتقم من كل ماضيها الأسود الملطخ.

- يا نينو. يا عمي نينو.

ارتفع صوت إبراهيم الحلاق. فالتفت الشيخ عبد المجيد، إلى النهج المنطلق من السباط. بعض باعة الجبب يصطفون على المقاعد تحت الجدار، ثم نصبة عليها كتب.

قدم عجوز في غبارية بهت لونها الأسود، على رأسه طربوش نصفه الأعلى أحمر، ونصفه الأسفل، مزيج من اللونين الأسود والأحمر، في ذراعه برنس صوفي، وجبة قمرة، وفي يده اليسرى، مذياع، بينما تلعب أصابع يده اليمنى بسلسلة ذهبية رقيقة.

نينو فعلا. نسيته. هو بلحمه ودمه. غير أن حاله تردت.

كان رجل أعمال يبيع ويشتري قضايا المحاكم. يتقدم إلى أحد المتخاصمين أمام القضاء، ويعرض عليه ثمنا معينا، مقابل خصومته، ويتولى هو القيام بكامل الإجراءات الباقية من تكليف محام إلى استصدار الحكم إلى استصحاب الأعوان المنفذين.

من قصده نينو يعرض عليه بيع قضيته ولم يبعها له، خسرها. والقضية التي يشتريها نينو تكون مربوحة مهما كانت.

هاهو المسكين يدلّل في السباط ببرنس قديم، وجبة ملبوسة ومذياع صغير وسلسلة ذهبية رقيقة، يقين ان الحنين فقط، هو الذي يشده إلى هذا المكان. الحنين إلى الماضي، وإلى رجالاته وأمجاده.

- كيف حالك يا نينو؟ مازالت البركة.

- آهاه. من أرى. الشيخ بوالارواح؟ يا له من يوم. منذ مدة قصيرة فقط سألني عنك أحدهم. والله نسيت اسمه. كيف حالك.

تعانق الشيخان، وقصدا منضدة خلت لحينها:

- معظم أناس العهد رايتهم إلا أنت. لا أحد عثر لك على جرة أو على أثر. كيف حال عالم السوء. أتذكر الشيخ إيدير رحمه الله. كان يقول، أكثر الناس، تحل لهم أموالي، الشيخ بوالارواح، إنها تسترجع شبابها وحيويتها عندما تكون بين يديه. عهدنا بك في تونس.

راح نينو يتساءل، بينما لبث الشيخ عبد المجيد يردد في هدوء واستسلام:

- بخير. الحمد لله. الحمد لله. وأنتم هنا. بخير. بخير.

- أتذكر؟

- لكن قل لي أولا. كيف ترديت وضعيتك هكذا.

الحمد لله يا الشيخ بوالارواح، على طول العمر وسلامة العقل والبصر. الحمد لله. مهما كان الأمر، فينبغي أن لا نأسف على الماضي. إن الناس كلهم قانعون بحاضرهم، مستبشرون بمستقبل أبنائهم، فلماذا الأسف على الماضي. ما فات مات. ارتكبنا أخطاء، وأثمنا في حق الناس وفي حق أنفسنا. ولكن كل شيء مر وولى. الحمد لله على طول الأعمار وسلامة العقول والأنظار يا سي بوالارواح. من كان يظن أن هذا يحصل. أنا شخصيا كنت أؤمن إيمانا جازما، بأن إرادة فرنسا أقوى من إرادة الله. ما كان يخطر ببالي قط، أن هذه الإرادة تنكسر ذات يوم، وتذل فرنسا، وتخرج منهزمة ونبقى فيها نحن.

- يبقى فيها هؤلاء!

- نحن، كلنا يا بوالارواح، حتى أنا. نعم حتى أنا. اغرورقت عينا نينو، واضطرب فكه الأسفل، ارتخت شفتاه، وغمغم:

- في حين كان ابني الكبير في السجن، وابني الصغير في الجبل، كنت أنا.

لم يتمم عبارته، وانحدرت دمعتان من عينيه، وغص حلقه. حنى رأسه في خجل.

- تتعامل مع المخابرات الفرنسية؟

أضاف الشيخ عبد المجيد مستفسرا، فأومأ نينو برأسه، أن نعم، وبعد لحظة أضاف:

- الله يغفر ويسامح وإلا..

تساءل عبد المجيد بوالارواح في سره: لماذا يبدي معظم الخونة رضاءهم عن الحاضر، هل أنهم يتملقون، أم أنهم يقابلون التسامح بالتسامح؟ لو انتصرت فرنسا ما يكون مصير نينو؟ آغا أو باش آغا أو قائدا ولا شك! ولكن ما يكون مصير ابنيه، المقاومين؟ الجندي يستشهد مع من معه، والمسجون يشفع فيه أبوه ويرتد.

لقد تحطم مستقبل نينو، بل، ومستقبل فرنسا وأوروبا وإفريقيا كلها.

تحطم مستقبل استعماري كبير..

لكن ما حل محله؟

أستغفر الله. أستغفر الله. الاستقلال استقلال، والانتصار انتصار، والاشتراكية والشيوعية شيء آخر. سيقيض الله لدينه من يستعيد عزته وقوته في النفوس، لا في الجزائر فقط، وإنما في ديار الإسلام كلها، فحيثما حل المرء الآن، بالمغرب أو بتونس أو بالشام أو بمصر، وجد مظاهر الزندقة والإلحاد. ولو بقيت فرنسا هنا، وخاصة بعد الحرب التي خضناها ضدها، لأجبرتنا جميعا على التنصر وترك الإسلام. إذا ما توحد أشراف الأمة من الأغنياء والعلماء، ووقفوا وقفة رجل واحد ضد مشروع هؤلاء الزنادقة، وأحبطوه، فستنقذ هذه الأمة ويسلم دينها.

ظل نينو مطرقا، يحملق في الفراغ...

رغم مبالغته في التنكر عرفته. تبعته من هنا إلى السويقة إلى باب الجابية، ولج البيت الثالث في المعهر، وأغلقت "نعناعة" خلفه الباب. كان الوقت ظهرا. وكان الثلج يغطي المدينة. ماذا أفعل؟. هل أعود وأتلفن إلى الضابط، أم هل أبقى في انتظاره حتى أجد مخبأه النهائي؟ بقائي هكذا في المعهر، لا معنى له، إلا التعرض للافتضاح مع بعض المعارف، قد يخرج حالما ألتفت فأتورط مع الضابط.. اقتربت من الباب، تظاهرت بربط حذائي وضبط خيوطه.

- نعناعة. هل قمت بكل ما أمرتك به؟

- نعم. على أحسن ما يرام.

- أريد أن تخرجي الآن.

- كما تأمر.

- هذه عشرة آلاف أعطها لزوجتي تعرض به الولد على الطبيب وتشتري له الدواء. وهذه قائمة بالأدوية اشتريها لنا.

- وأنت؟

- سأنتظر قدومه أولا، وعندما تعودين نحاول الخروج.

ركضت إلى البريد، خابرت الضابط ورجعت أنتظر كما أمرني في مدخل المعهر.

تحركت الشاحنات العسكرية. تحركت السيارت المدنية، حوصرت قسنطينة. سدت منافذ سيدي راشد، وقفت دورية في أسفل نهج باب الجابية، وأخرى في مدخله. تقدم الضابط، وطرق الباب بعنف بينما العسكر يشهرون بندقياتهم:

- يا عمار. نعرف أنك هنا. المدينة محاصرة. سيدي راشد محاصر. باب الجابية محاصر. الغرفة التي أنت فيها محاصرة. لا جدوى من المقاومة. سلم نفسك وإلا قذفتك بقنبلة غازية. هيا يا عمار هيا.

ظل الضابط يزمجر، بينما العساكر يلقون القبض على كل من في المعهر، النساء والرجال. ويسوقونهم نحو الشاحنات، ألقي القبض علي بدوري، حتى لا يشك أحد في أمري.

- هاتوا الشيخ المتصابي هنا، حتى أنظر في أمره بنفسي، فلا شك أنه هو الذي أوصله إلى هنا. وإلا ما جاء به؟

لم يخرج عمار.

زمجر الضابط مرة ثانية:

- وقعت يا عمار. وليس لك من مفلت. سلم نفسك.

لم يخرج عمار.

- أمنحك فرصة أخيرة يا عمار. لقد وقعت ولا فائدة من التعنت. هيا أخرج وإلا اقتحمنا الغرفة. سأعد حتى الثلاثة ثم أفعل ما يوجب خروجك.

لم يخرج عمار.

- واحد.

لم يخرج عمار.

- اثنان.

لم يخرج عمار.

اثنان.

أعاد الضابط في غضب، فارتفع صوت من الداخل:

- أخرج. أخرج أسلم نفسي.

الصوت أعرفه! لمن يكون الصوت يا ترى؟ قلبي يهتز بعنف، الصوت مألوف جدا في أذني، من يكون صاحبه؟ آه.

- هكذا أفضل. اقذف سلاحك أولا.

- افتح الباب. ارمي رشاشتي ثم أخرج.

- لا. لا. سليمان ابني. أي فظاعة أتيت. رباه. رباه.

تلقيت ضربة بمؤخر البندقية على فمي. سال الدم، وجحظت عيناي. انفتح الباب، أعقبه انفجار قنبلة أولى، ثم ثانية. ارتفع الصراخ وعلا الدخان، وقعت أجساد على الأرض، هراوات أقدام خشنة، لا أحد يمسك بي. ركضت إلى الخلف. ارتفع صوت الرصاص. انطلق في الأول من

باب الغرفة، ثم انطلق من أعلى ومن أسفل النهج. تتالت انفجارات قنابل أخرى. هتف صوت أعرفه جيدا:

- أمي العزيزة.

خمد كل شيء. قادوني بعد وقت إلى مدخل غرفة نعناعة لأتعرف على الجثة. كان هناك جثتان. جثة عمار، وجثة سليمان. ولدي.

- رحم الله الشهداء.

تمتم نينو، وهو يرفع بصره نحو الشيخ عبد المجيد بوالارواح الذي بادر يسأل:

- أريد أن أسألك عن حلاق كان هنا على منضدة اسمه عمار، يقين أنك تعرفه.

- رحم الله الشهداء.

رد نينو وهو يتنهد.

غادر الشيخ بوالارواح سباط الرصيف، بعد أن أفهمه نينو، أن عمارا استشهد استشهادا بطوليا وأن له ابنا في السادسة عشرة من عمره.

صهري شهيد. هذا فخر على كل حال، إنه أخو زوجتي، ستسر أخته ولاشك حين تعلم به. لن أتصل بابنه، فلربما يكلفني ذلك بعض المال.

واجهته الروائح تسيل في موجاتها. الأدمغة المشوية. المرق. التوابل. ثمر الصبار. صدمته الموجة البشرية القوية. الضجيج يرتفع. يرتفع بشكل فظيع. منبهات السيارات ما تفتأ تستغيث. الناس كالصم يتحدثون بصوت عال ويكررون الجملة الواحدة أكثر من مرة.

اللون الداكن يتحرك في القلب. بل. المادة السائلة، تشرع في الذوبان. الحرارة ترتفع. الركبتان يسارع إليهما الوهن. العنق يود التلاوي. الرأس فوقه ثقيل. الذراعان تصبحان عبئا كبيرا على الكتفين.

- الناس يتقاتلون على السكر، الواحد يشتري عشرين كيلو ولا يزال يبحث عن السكر.

- حال يا الطاهر بن علي. إنهم يكدسون. يكدسون. هكذا مع اقتراب كل رمضان. الزيت لا توجد منه قطرة في المتاجر. حولوه كله إلى بيوتهم.

- والسميد. والصابون. تحولت البيوت إلى مخازن.

- حال يا الطاهر بن علي.

التقطت أذنا الشيخ عبد المجيد، مقطعا من حوار يجري بين شخصين أمامه. يسدان عليه الطريق، فراح يفكر:

لم يكفهم ثقلهم للضغط على الصخرة المسكينة فراحوا يكدسون المواد الغذائية...

قل إذن إن الوزن تضاعف... سيكون سريعا.

بمجرد ما تتحرك الصخرة، يتبعها كل شيء. تتفتت، تتفتح الأخاديد. تبتلع الناس والزيت والسكر والسميد، وتنغلق.

يستوي كل شيء بعد ذلك.

لكن أثناء ذلك كله، يكون الهلع العظيم، تذهل المرضعة عما أرضعت. وتضع كل ذات حمل حملها. ويسكر الناس وما هم بسكارى. لا. إنما يذهل مدخر عما ادخر من زيت وسكر وسميد، ويضع كل ذي سلة سلته، وكل ذي بضاعة بضاعته. ويسكت الناس لحظة عن الحديث. هذه هي صفة الزلزال في قسنطينة، فالمرضعة ذاهلة عما ترضع بعد، وهي في الشوارع تركض خلف المواد الغذائية. الأحمال في بطون بقرات إبليس هاته، ليس أعز من خمس لترات زيتا، أو خمسة كيلو سكرا. أما هؤلاء. فأي سكر أكثر مما هم فيه، إنهم على ما يبدو، في هذه الحال. يهيمون على وجوههم، منذ أمد طويل.

تمكن من قطع الشارع الضيق، ووقف يتلقى الدفعات بالأكتاف والأيدي والبطون. من كل جانب. تأخر فتأخر. حتى التصق بالجدار.

- عمن أسأل أولا؟ أعن الطاهر النشال، في رحبة الجمال، أم عن عيسى المتصوف في زاوية سيدي عبد المؤمن؟ المفروض أن أبدأ برحبة الجمال، ثم أعرج بعد ذاك عن الزاوية، ثم أنزل حتى ضريح سيدي راشد أحييه بركعتين.

تمتم الشيخ عبد المجيد بوالارواح، ثم راح، يصعد في بطء. نحو الساحة الكبرى، ليلف إلى الرحبة بعد ذلك.

الفرقاني من هنا. إلى جانبه أم كلثوم. يقابلهما حديث ديني في الإذاعة، إلى جانبه عيسى جرموني، بعده فريد الأطرش. في الوسط صوت يردد: هنا لندن، الروائح من كل لون تعبق.

- غلاف بطاقة تعريفك. غلاف رخصة السياقة. التغليف بسرعة وبإتقان. وبثمن زهيد.

استرعت انتباهه العبارة الأخيرة: ثمن زهيد، فالتفت.. شاب في السابعة عشرة، عليه بدلة صينية زرقاء متهرئة، وفي قدميه نعل حلفة، طويل الشعر، أبيض البشرة مع

احمرار. واقف الأنف، متأهب الشفتين لبسمة وقور. عيناه حادتان. حركات يديه رصينة. أمامه منضدة صغيرة عليها دولاب كبس أحمر، وغلى جانبه عدة لفافات ورق، وبطاقة تعريف بيضاء.

الشبان هادئون إلى حد إثارة الأعصاب، معتدون بأنفسهم، واثقون من أمرهم، كأنهم فرغوا من أمر الكبار مرة واحدة وإلى البد.

كل شاب في هذه المدينة، يبدو وكأنه أمام محتضر ميؤوس منه منذ زمن طويل، لا هو بالفرح، ولا هو بالحزين. يبالغ في إعلان سلامته من العقد. إلى حد يجعل المرء يعتقد. أنه بدأ حياته من الخاف. من الشيخوخة، ونزل إلى الشباب.

- ساعة. ساعة.

- مذياع. مذياع.

- مسجلة. مسجلة.

- حذاء. حذاء.
- حقيبة. حقيبة.
- سروال. سروال.
- معطف. معطف.
- ساعة. ساعة.
- مذياع جديد.
- مصورة جديدة.

الأيدي ممتدة. الألسنة تلهج. الأجساد تتقدم وتتأخر، الأقدام لا تتحرك.

كان الشيخ عبد المجيد بوالارواح في الأول، يرد بالنفي على من يعرض عليه بضاعته، وشيئا فشيئا، وبدون شعور منه، راح يرد بالصمت والاحتقار، وتأمل البضاعة المعروضة...

أجزم أن القسنطيني إما سارق وإما مسروق. وأن الناس، يبيتون يسرقون بعضهم البعض، ويظلون يبيعون البضاعة المسروقة لبعضهم البعض.

بضاعتهم، مثل نقودهم تبيت في مكان وتصبح في آخر. تنمو بما يرد عليها من الخارج وتنقص بما يفلت منها نحو القرى والبوادي. إنهم لا يفعلون شيئا هنا. سوى الذهاب والمجيء، في طواف متواصل، وعرض البضاعة على بعضهم البعض.. ومع أن الفصل صيف، والناس في معظمهم لا ينتعلون الأحذية، فإن بين خطوة وأخرى إسكافي منهمك في الدق بمطرقته أو في الغرز بمخرزه.

هؤلاء الناس لا عمل لهم إلا المشي. لا مهنة تشدهم في أماكن واحدة. ولعل هذا هو سبب هجرهم لقراهم وبواديهم.

استوقفته الخاطرة.

سبب تجمع الناس في قسنطينة بهذه الصفة المخجلة، هو البطالة. هكذا الشأن في كل المدن والعواصم الفلاحية. يد

تنتج، وألف فم يستهلك. واحد يقبض، والآلاف تتفرج. ستون يوما عملا في السنة، وثلاثمائة يوم بطالة. على هذا إذن ترتكز فكرة أصحاب المشروع الجهنمي. انتزاع الأراضي من عباد الله الصالحين، وتوزيعها على جميع الناس، لينشغل كل واحد بمتر أو مترين، وبدجاجة أو دجاجتين، وإخلاء المدن، أو على الأقل عدم تعميرها أكثر.

فكرة.

الشياطين الملاعين. يخطط لهم الروس بأدمغة اليكترونية. ينقلون عنهم خططهم حرفا فحرفا. لكن مهلا. مهلا. منطقهم هذا، غير مستقيم، وفلسفتهم هذه مسطحة كثيرا.

من يخرج من المدينة ومن يبقى فيها؟ هؤلاء الذين ذاقوا اللاف والدوران الفارغين كالذباب، عرفت نساؤهم الحمام والمستشفى، وعرف أبناؤهم المدارس والثانويات والملاعب. لن يخرجوا من المدينة. وأولئك الذين بقوا في الريف وفي

القرى الصغيرة، يتطلعون كلهم إلى المزابل التي يحوم حولها الذباب؟

فكرة.

بدل أن تكسب الحكومة عطف الريفيين، يثورون ضدها. يجب إقناعهم، بأن ربطهم هذا بالأرض، فكرة حضرية، هدفها الأساسي، هو إيقاف هجراتهم نحو المدينة.

وفي الحق، هذا هو أصل الفكرة، فهؤلاء الحكام، وهم كلهم من اصل ريفي، ما أن عرفوا المدينة وبدأوا يتوسعون فيها. حتى واجههم مشكل الازدحام والتراكم البشري.

الحكومة لا تحب كثرة اللاف والدوران، فمن أدراها، بأن حالة مثل هذه طبيعية، وليست مظاهرة، يعلن فيها الشعب عن احتجاجه، ومطلبه، في فتح الطريق نحو أوروبا وأمريكا.

شعر الشيخ عبد المجيد بوالارواح بنوع من الصفاء يعود إلى نفسه، وهو يجتاز الأيدي الممدودة والأصوات المنطلقة

والأجساد المتكورة، التفت إلى أصحاب النصب والحوانيت الضيقة، وتمتم:

- رحبة الجمال كما كانت. لكنها ضيقة لا تتسع لخمسين جملا، فلماذا سماها الأولون بهذا الاسم؟ يقين أنها كانت فسيحة، وصغرت شيئا بعد شيء، كلما هجرها جملان ومكث فيها راكبه.

قصد المقهى وتهالك على أول مقعد صادفه. جال بصره في الداخل والخارج. المقاعد والمناضد من الحديد، مطلية حديثا. الجدران نقية مطلية حديثا أيضا. الأكسبريس الإيطالية، خلفت الوجاق القديم حتى هنا. ليس هنا جالس غيري، سوى صاحب المقهى.

طبيعي، ماداموا كلهم يمشون ويرقعون الأحذية.

صاحب المقهى كهل، تخطى الخمسين، لكنه لا يزال يتمتع بالصحة. أبيض طويل، طريقة عصب عمامته، تدل على انه قسنطيني حر، تبدو على ملامحه الهيبة والوقار. إنه كالتمثال. يقين أنه يعرف الطاهر النشال، أو يعرف مصيره

على الأقل. إنه يسترق النظر إلي ولا يتحرك. حتى إذا ما كان يعرفني فإنه يكون نسيني في فترة هذه السنين الطويلة. أنا في الحق، لم أكن أقصد رحبة الجمال كثيرا. عندما يأتيني بالمشروب أسأله. لكن هل من الضروري أن اشرب؟ الوقت ضيق، ولا فائدة من تضييع ما تبقى منه. يجب أن أخرج الليلة من قسنطينة. أبيت في القرية لأصفي صباح غد الحسابات مع الخماسة، وأطردهم. أطردهم عن بكرة أبيهم.

ينبغي من ألان فصاعدا أن لا أخدم أرضي إلا بالآلات وبالمأجورين الوقتيين، فمن يدري مع هؤلاء اللصوص. انهض اسأله وانصرف.

- اسمح لي من فضلك أسألك.

- مرحبا بك. تفضل.

- أبحث عن قريب لي. كان هنا. هذه مدة طويلة، وفقدت أثره. اسمه الطاهر.

- تعرف أن نصف سكان قسنطينة اسمهم الطاهر. أين كان حانوته؟

- لم يكن يملك حانوتا. كان يشتغل هنا وهناك. لقبه بوالارواح. الطاهر بوالارواح مثلي.

- إيه. إيه. قل لي من الأول سي الطاهر.

- سي الطاهر؟.

- وما أدراك، يبدو أنك قدمت من الخارج.

- أنا عمه. قضيت سنوات الحرب في تونس، وسنوات الاستقلال في العاصمة. الحق أنه بسبب ماضيه الذي تعرفه، كان بيننا نوع من القطيعة.

- وأي ماض يا سيدي، سي الطاهر، من الوطنيين الأوائل. دخل السجن أكثر من مرة، وحوكم عدة مرات بتهم ملفقة. كانوا يقولون عنه إنه نشال، ولكنه في الحقيقة، كان يقوم بتهريب الأسلحة والذخائر. سي الطاهر من الأوائل.

- أنا عمه! أين هو الآن؟

- أنا صهره! تزوج ابنتي بعد أن عاد من الجبل. طلق الأولى، وصاهرني!

- نحن أصهار إذن؟!

- نعم. تفضل تناول مشروبا.

- بكل فرح.

جلس الشيخ عبد المجيد بوالارواح ما أن تلقى الدعوة، في حين نهض مضيفه لإحضار المشروب. فكر هل يسأله عن رأيه في الحكومة أولا، أم عن مصير ابن أخيه الذي أضحى اسمه مقرونا بسي. إن كان تاجرا حرا، فلابد أنه يكره الحكومة. ما تحدثت قط مع تاجر إلا ووجدته يحقد على الحكومة. التجار الحقيقيون طبعا، أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة، المحترمة، لا أولئك المفلسون من نوع بالباي ونينو. إذا كان يكره الحكومة، فسأفشي له بالسر، لكي يعلم من يهمهم الأمر فيحتاطون لإحباط المشروع، سواء أكان يكره الحكومة أم يحبها، فلابد أن أحدثه قليلا عن المشروع

الجهنمي. يجب أن يعلم به القاصي والداني، وأن يثور ضده جميع الناس، المعنيون وغير المعنيين.

- تفضل. تفضل مرحبا بك. العشاء في داري ما في ذلك جدال.

- كثر الله خيرك. أنوي مغادرة المدينة الليلة.

- هذا غير معقول. عم صهري، ويدخل قسنطينة ويخرج دون أن يذوق ملحي.

- أنا عبد المجيد بوالارواح. عم الطاهر صهرك. مدير ثانوية بالجزائر العاصمة. وعالم في الدين والنحو والصرف. ألم تسمع بي قبل اليوم؟!

- حدثنا عنك سي الطاهر. نعم حدثنا عنك.

أعلن، ثم راح يفكر: "لو كان يحرث ما باعوه"، لا يسأل عنه طيلة هذه المدة، ثم يتقدم يعلن عن نفسه أنه عمه...

"حنان الدجاجة بلا رضاعة".

- في الحق، ما كان يحدثني عن أعماله ومشاريعه. كان المعهود عنه أنه نشال في رحبة الجمال.

- تلك هي التهمة التي يوجهها له الاستعمار.

- وقد آلمني، بل، استفزني يوم قرر بيع أرضه، تصور. استدنت لأتمكن من شرائها والحفاظ عليها.

- حدثنا عن بيع أرضه، قال أنه اضطر لبيعها، لكي لا تفلت منه صفقة أسلحة هامة.

- لو طلب منا يومها شيئا ما كنا نبخل به عنه. ابن أخينا، والقضية قضية وطن.

قال الشيخ عبد المجيد بوالارواح، وسكت فجأة. رأيته بعيني يستل الخنجر على أمثاله من النشالين، وبلغتني تفاصيل محاكمته، اعترافه باختطاف محفظة عجوز يهودية، فيها أربعمائة فرنك قديم.

كل شيء يبدأ من يوم يبدأون! ما أحذقهم في صنع التاريخ!

مهما كان، فشرف ابن الأخ شرف لعمه. والعكس. لعله الآن تاجر كبير، أو صاحب معمل، أو أي شيء من هذا القبيل. قد يكون له بعض الأبناء، فأكتب لهم أيضا جزءا من الأراضي. سأضرب بذلك عشرين عصفورا بحجرة واحدة. أكفر عن الماضي، بذنب وبدونه. أوطد أواصر القربى في الحاضر. أضمن – وهذا هو الأهم - عدم اقتراب يد الحكومة من أرضي. أضمن بقاء جزء كبير من الأرض بين أيدي الأسرة في حالة وفاتي. هو وريثي الوحيد، حسب أصول الشريعة. ولكن هاهم الكفرة.

- أنا أدعى سعدان بالعربي. ثلاثون سنة وأنا في هذا المقهى. سي الطاهر، عرفته وهو صغير جدا. كان دائما يجلس هناك في تلك الزاوية رأسه مرفوع، بينما عيناه تفحصان المنطقة. قبل أن نعرف حقيقة عمله، كنا نظنه مخبرا للشرطة، ففكرنا في اغتياله.

- وهل كنتم تخافون الشرطة إلى هذا الحد؟ أنت أيضا من الحركة ولاشك؟

تردد سعدان قليلا، فكر أن يجيب على الفور أن نعم، ثم لسبب ما عدل، امتص شفته السفلى، أغمض عينيه ثم فتحهما.

كان علينا أن ندخل أحمال الصابون بكل ثمن. مائتا حمل، حوالي المائة والثمانين قنطارا دفعنا ثمنها مسبقا. جمع كل منا كل ما في إمكانه من نقود. بعث كل ما يحيط بي. حتى المقهى رهنته، بل، بعت أكثر من نصف حصتي، وقبضت ثمنها.. المسألة مسألة حياة أو موت بالنسبة لكل واحد منا. خمسون حمارا تدخل بخمسين حملا عن باتنة، وعين مليلة، وتنتظر في "باردو"... خمسون أخرى تدخل على "عين البيضاء" و"عين كرشه" وتنتظر في سيدي مبروك.. خمسون أخرى تدخل عن"قالمة"، فوادي الزناتي وتنتظر في جبل الوحش.. خمسون أخرى تدخل على عزابة، وتنتظر في الحامة.

كانت البيعة جاءتنا من تونس، فسافرت إلى تبسة لعقد الصفقة، ووضع أسس الاتفاق الأخيرة. كان علي أن أحافظ

على المبلغ الضخم الذي أحمله، وأن أحافظ على حياتي، وعلى السر، وإن أخترق جواسيس الفرنسيين والحلفاء والألمان أيضا. الطاهر بدأ يتردد على الرحبة وعلى المقهى في تلك الأيام. تركته هنا، وعندما دخلت حمام عين البيضاء للمبيت وجدته أمامي. تحاشيت مواجهته، لكنه عرفني. كان شابا صغيرا، ولكنه كان لامع الذكاء. حدق فيّ، كأنما يتساءل عما أفعل هنا، وهل أتبعه، أو أطارده، ثم غطى وجهه واستسلم للنوم، وعندما نهضت مع الفجر لم أجده. عرفناه في رحبة الجمال باسم قدور ولكن عندما سألت عنه صاحبة الحمام، قال إن اسمه بوجمعة وأنه قدم من سطيف. إن لم يكن مخبرا، فإنه هرب. قلت في نفسي وواصلت طريقي. في تبسة وجدته أيضا أمامي. تجاهل كل منا الآخر حتى عندما وجدنا أنفسنا جنبا لجنب في الحمام، لم يكن عرف بالنشال بعد، ولكني اتخذت احتياطي. لم أنم. باتت يداي، واحدة على الخنجر، وأخرى على كيس النقود الذي يلف صدري وظهري، وجزءا من بطني. سهل الله في البيعة، فلم أتعطل في تبسة. أول عمل وقائي طرحته، على

شركائي، هو التخلص منه. إلا أنه لم يظهر إلا بعد أربع سنوات ونصف، علمنا فيما بعد، انه التحق بجيش الألمان، وأنه أسر، ثم انخرط في الجيش الفرنسي.

اشتبكت قوافل الحمير، في أكثر من موضع، مع أكثر من دورية، لكنها سلمت في معظمها. رشونا سبعة قياد، وسبعة مخبرين، وسبعة حراس غابات ونجت قوافلنا. وبعد أيام غرقت قسنطينة في الصابون.

استغرق سعدان، في خواطره عن ماض سحيق، يتذكر تفاصيله، بينما استسلم الشيخ عبد المجيد بوالارواح إلى خواطر، راودته، بمجرد ذكره للشرطة.

يوم ألقي القبض على عضو هام منا، بذلت أقصى جهدي لإبلاغ رأيي للمخبرين، جلست في أكثر من مقهى، وتحدثت إلى أكثر من شخص، قلت رأيي: نحن جمعية دينية، ولا علاقة لنا بأي شيء يتصل بالسياسة أو يمس السلطة. كل ما

بيننا وبين السلطات هو فصل الدين عن الدولة. وضمان حرية نشاطها.

أقسمت في مقهى النجمة، أنني لن أرسل إليه ولو رسالة واحدة. وزوجي طالق بالثلاث إن راسلته بالخير أو بالشر. وبالفعل لم أكتب له. كما لم يكتب له أحد منا، الأمر الذي اضطره إلى تأليف رواية شعرية كاملة عنا.

الشرطة شر. النقابات شر. العنف شر.

- ساعة سويسرية بأربعة وعشرين حجرة.

- راديو يسجل ويغني من تيندوف.

- غاز ولاعات سجائر. ولاعات من أحسن نوع.

- بدلات شانغاي الحرة.

ترامت إلى مسمعيهما، أصوات الباعة الذين لسبب ما، بدءوا يتزحزحون نحو المقهى. في حين ارتفعت صفارات سيارات الشرطة.

امتلأ المقهى فجأة بالجالسين والواقفين، حتى لم يبق متنفس...

زلزلة الساعة شيء عظيم. يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ... لابد أن ساحة لا بريش فغرت فاها، وأن من نجا من الانزلاق إلى الهاوية هرب إلى هنا.

بعد لحظات. يذوب الجزء الغربي، يلجأ الناس إلى الجزء الشرقي فينعدم التوازن وينحدر بدوره.

تنقلب الصخور على بعضها، مختلطة بالعظام واللحم والدم، والزيت والسكر، والصابون، والسميد. تنفجر قوارير الغاز، وتختلط خيوط الكهرباء، وترتفع ألسنة النار إلى عنان السماء. ممزوجة بالغبار والدخان.

تنتهي حكاية مدينة فاجرة. آثمة، لا يشتغل الناس فيها سوى بسرقة بعضهم البعض وبالزنا.

وأنا.

عليّ وعلى أعدائي يا رب. لكن لا. أريد أن أشهد، نهاية هؤلاء المارقين، وفشل مخططهم، وأن أرى كلمة الله تعلو وتعلو. حتى لا يبقى سواها، وحتى لا يبقى تطاول لأسفل.

كثر الزحام. جميع الباعة واللصوص، والدلالين، والمارين، تجمهروا حول المقهى والمتاجر التي تواجهه. بعضهم وثب إلى أسفل السور القائم إلى جانب المقهى، وبعضهم يقفز إلى أعلاه.

- السبتي. السبتي.

نادى سعدان فالتفت نحوه شاب، في أصابع يده اليسرى ساعات، وفي يده اليمنى مذياع وحذاء. دفع بكتفيه يمينا ويسارا، محاصرين له من كل الأعمار والقامات حتى وصل إليهما.

- مساء الخير. كيف حال عمي سعدان؟

- ماذا جرى له؟

- مرجانة ماتت.

- ومن مرجانة هذه؟

- نزيلة باب الجابية الجديدة. جاء فتاها من "الجلفة " معها. لكن فتوة باب الجابية كلهم نصبوا أنفسهم فتوة لها. دافع عنها فتى " الجلفة " دفاعا مستميتا، وعندما وجد نفسه يتقهقر أمام ضربات الخناجر القوية، التفت إليها وطعنها سبع طعنات. الفتوة خرجوا، لكن ها هي الشرطة تحاصر سيدي راشد. كل من يخرج يطلبون بطاقة تعريفه، وإن لم يكن يحملها، ساقوه إلى الاستنطاق والبحث. سيلجئون إلى هنا في آخر الأمر.

مرجانة مسكينة في السادسة عشرة من عمرها. بضة بيضاء فارعة الطول، كريمة طيبة.

رحمها الله.

حمام على بابه لوحة خشبية مكسورة، كتب عليها بخط جد رديء، وبطلاء أحمر: اليوم النسا. حمام.

أية امرأة تجرؤ على اقتحام الرحبة، وقصد هذا الحمام.. على أية حال، لو لم تكن هناك زبونات لما أصر صاحب الحمام على تعليق هذه اللوحة.

الناس هنا غير مبالين كثيرا ببعضهم، ففي الحين الذي يفعل فيه كل واحد ما يشاء، وكأنما هو وحده، لا أحد يرقبه، أو يتأثر بفعله، يمدون أيديهم جميعا لبعضهم، معلنين عن بضائعهم.

لا أحد متفق مع الآخر، ولا أحد مختلف مع الآخر أيضا: لا أحد يشعر بوجود غيره، ولا أحد في غنى عن غيره.

إن لم تكن هذه حال الزلزال، فما تكون؟ ما تكون يا ترى؟

فكر الشيخ عبد المجيد، وهو يغادر مقهى سعدان بعد أن فك الحصار الذي لم يطل، ثم راح يستعيد جمل سعدان الأخيرة:

- الطاهر ضابط سام. ألم تسمع به؟أنه يحل ويربط.

- بأية رتبة؟

- قرب أذنك.

- يكون إذن قد غير اسمه ؟؟

- بالذات. بالذات.. الليلة العشاء عندي. نصلي صلاة المغرب في الجامع الكبير، ثم ننطلق.

- لا تكلف نفسك.

- القرار اتخذ يا شيخ عبد المجيد. نحن أصهار.

الطاهر بوالارواح النشال، ابن أخي السكير العربيد، ضابط سام؟ وأي ضابط؟ يحل ويربط. هذه هي المسألة إذن؟

الزلزال إحساس، يتقدم أو يتأخر أو يكون في حينه. بالباي أحس به. نينو أحس به. سعدان يحس به.

وأنا؟

أنا انتظره ...

تذهل المرضعة عما أرضعت. تضع ذات الحمل حملها. ترى الناس سكارى وما هم بسكارى. ينسى الناس الزيت والسكر والقهوة والصابون والسميد والبيع والشراء، والسرقة أيضا، تتفتت الصخرة، وتنفتح الفجوات في كل مكان، وتلتهب النيران ثم يهدأ كل شيء.

" إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين.."

الشيء يعظم في الصدر، والرائحة العفنة تقوى. المادة السائلة تسري في العروق، والمرارة تصاعد إلى الفم. هذه الرائحة الكريهة. ثمر الصبار. الإسكافيون. البول. البول.

التفت الشيخ عبد المجيد قبل أن يغادر ساحة رحبة الجمال فقابله صف طويل من الحفاة العراة المتسخين في أيديهم أوان قصديرية مشدودة بخيوط وخرق متسخة. قرأ على الجدار:

" المطبخة البلدية الشعبية ".

يطعمونهم أيضا. يصرون على أنهم في حاجة إليهم. طبعا. طبعا. كل إناء بما فيه يرشح.

الطاهر النشنال ضابط سام يحل ويربط. عمار الحلاق شهيد. نينو الدلال الخائن، أب لشخصية. بالباي المفلس راض عن وضعه. سعدان مهرب الصابون والمخدرات صهر لضابط سامي يحل ويربط.

صدقت يا رسول الله. صدقت يا حبيب الله، من علامات قيام الساعة أن يتطاول الحفاة العراة، رعاة الشاة في البنيان، وأن تلد الأمة ربتها. أن ينقلب الأسفل على الأعلى. وأن لا

يبقى هناك أسفل وأعلى، فتلك علامة قيام الساعة، وها هي تحل .. إن زلزلة الساعة شيء عظيم.

ظل يجتر في سره، وهو يتقاذف في الزقاق وسط الروائح، مسترقا النظر في كل خطوة إلى المطاعم والمتاجر حوله، ويعجب من الحركة التي تدب فيها.

هذه "السويقة" لم يتغير فيها شيء، سوى كثرة البشر. الحلاق يقرأ جريدة. لا أحد يحلق. بدأت الروائح، تفقد موجاتها وتختلط. هنا الأزقة أضيق.

على اليمين مدرسة " أراغون". في السابق من لم يتلق تعليمه الابتدائي بمدرسة "أراغون" اعتبر أميا بين أوساط المثقفين بالفرنسية. ترى كيف حالها الآن؟

من فوق سيدي بوعنابة.

في الأسفل الانحدار.. ثم الانحدار..زاوية سيدي عبد المؤمن، ثم الانحدار حتى النهر، حتى حافته، حتى الجسر، حتى ضريح سيدي راشد.

أسأل في زاوية سيدي عبد المؤمن عن عيسى ابن خالتي، ثم أمر إلى سيدي راشد لأصلي العصر هنالك. يقين أن عيسى يكون حيث هو، في زاويته يتلو الأوراد ويعلم القرآن، ويكتب الرقى، ويتلقى الزيارات. لقد كان مثالا في التصوف والزهد والاستقامة. حفظ الأجرومية، والرسالة، ولا شك أنه قرأ سيدي خليل بعد ذلك، إنه أبعد الناس عن الحياة ومشاكلها وشبهاتها، ولا شك أن الأحداث كلها مرت فوق رأسه، وأنه سلم من التغير الذي طرأ على جميع سكان هذه المدينة الفاجرة.

الجدران هنا مائلة إلى الخلف. في حالة الزلزال، تستلقي على ظهرها في وادي الرمال.

مع ضيق الأزقة، فإن النوافذ لا تكاد ترى. مع ذلك كل نافذة عامرة بامرأة تطل.

بقرات إبليس، لا يليق لهن إلا الكهوف والمغاور.

الأطفال هنا كثيرون. كثيرون جدا، كالجراد.

مروا من هنا صاعدين إلى فوق، تاركين خلفهم بيضهم يفرخ.

يا نسل السوء. يا بذور الشر. سلط الله عليكم وباء الطاعون. وزلزلت بكم قسنطينة، وابتلعكم وادي الرمال.

همه. الشبان هنا أيضا. إنهم يجلسون على عتبات الأبواب الصغيرة، ويحدقون في لا شيء.

هم أيضا هنا، يجلسون على رأس محتضر ميئوس منه. لا تهمهم حياته، ولا يعنيهم مماته. مات في قلوبهم ألف مرة ومرة.

أن يكون بين يدي أحدهم مقود طائرة، يركبها، أو عنق إنسان يحزه بموسى، لا يهمه الأمر، سيان عنده العمليتان والوضعيتان. ذاك ما تبوح به ثقتهم في نفوسهم المبالغ فيما هذه.

البنايات كلها مطلية حديثا. لا ينقص القرد سوى الساعة ... آهاه. زاوية سيدي عبد المؤمن. هي ذي، هي ذي بطلائها الأخضر لا تزال.

ما دامت هناك هذه البقايا، فإن الدنيا بخير. قلب المؤمن يكون مستريحا. إنها امارات أمل في الحياة، في أن ينقذ الله الأمور دون الزلزال، في أن يمدد في عمر العالم، موفرا لعباده الصالحين، كل شروط العمل الصالح. منقذا إياهم من شر المارقين الآثمين الملحدين.

عيسى ابن خالتي، يفرح فرحا شديدا حين يراني. يذكرني، وسيذكرني أن أمه ماتت عندي، وأنني أقمت لها مأتما محترما، تلقيت بمناسبته، عدة ذبائح، وعشرات الأرطال من السكر والزيت وغير ذلك. أقول له إنني اشتقت إليه، وإنني دفعت بسبب ذلك إلى زيارته، وإنني قررت أن أعيد إليه أراضيه، شرط أن لا يحوزها إلا بعد وفاتي.

أوف، لن أضطر معه إلى وضع أي شرط، فسواء أكانت على اسمه أم على اسمي، لن يسأل عنها.

حقا الحياة الآن ينقصها أمثال عيسى. ينقصها الزهد والتجرد من أطماع الحياة الدنيا. الفانية، الزائلة.

- السلام عليكم.

بادر الشيخ عبد المجيد بوالارواح حالما وطئت قدماه عتبة الزاوية.

التفت نحوه كهل حاد النظرات، تأمله جيدا ثم تصنع الابتسام، ودعاه إلى الاقتراب من مجلسه في محراب المسجد الصغير.

- تفضل.

هنا أيضا يبدو أن الأمور تغيرت.

لا يهم.

ما دام هناك مقدم يستقبل زوار الزاوية، فإن الحالة غير خطيرة جدا.

تمتم الشيخ عبد المجيد، ثم رفع صوته وهو يمد يدا متثاقلة لمصافحة المقدم الذي راح بدوره يتأمل اليد الممدودة، متعجبا لقلة تواضع زائره.

المفروض أن يقبل رأسه أو يسلم على كتفه أو ألا يفعل أي شيء. إن اضطر إلى ذلك.

- أعطيت الفضل. جئت أسألك عن قريب لي، كان مقدما في هذه الزاوية. هذا زمن طويل. تركته هنا على كل حال في مطلع الحرب. وسافرت إلى تونس. شدتني أشغالي الكثيرة، مع كبر السن، في العاصمة، فلم أتمكن من زيارته سوى اليوم. لكن ها أنني لا أجده. يشبهك لكنك أكبر سنا منه بكثير.

- لعلك تسأل عن سيدي بوالارواح.

- نعم عيسى بوالارواح. ابن خالتي.

- جئت متأخرا يا أبي.

- ماذا تقول؟ألم يحصل له مكروه؟

- حدثت أشياء غريبة في حياته، أخرجته عن طوره.

- كيف ذلك؟

- لقد تحول إلى نقابي. إلى شيوعي، فيما بيننا.

- عيسى مقدم الشاذلية، يتحول إلى نقابي. إلى شيوعي.

- جاءه في اليوم الأول، شخص مقصوص الذراع الأيمن، يرتدي بدلة زرقاء. جلس أمامه، وقال له.

- يا سيدي بوالارواح. ماذا أفعل. فقدت ذراعي في الشغل عند "ماشا". المفروض أن أنال تعويضا عن ذلك، فقد كنت أشتغل. لكن "ماشا" يا سيدي كما تعلم، صديق حميم لكل أولي الأمر، كلما كونا فرعا نقابيا، تدخلوا وحلوه ليضعوا على رأسه من يشاؤون ...

هدايا "ماشا" الفريدة تجد طريقا سهلا إلى ديار كل أولي الأمر. "ماشا" يا سيدي، هو تمثال صغير يجسد فرنسا الراحلة، يعبده أولو الأمر في قسنطينة. نسوا يا سيدي كفاح جميع المكافحين. الأحياء والأموات، ولم يعترفوا إلا بطيبة "ماشا" الذي لم يتخذ موقفا ضد الثورة.

أنت يا سيدي ولي الله وعرفت الجهاد. خبأت السلاح هنا. مررت الفدائيين والمسلمين. خرجت بنفسك إلى الجبل وكافحت. لكن هل يتذكرك أحد من أولي الأمر؟ معبودهم "ماشا". وليس سوى"ماشا". قرروا أنني فقدت ذراعي خارج أوقات العمل، وأنني كنت أنوي السرقة، وحكموا عليّ. سامحني في الأخير "ماشا" يا سيدي ولم يطالبني بالتعويض عن آلته التي تعطلت عن العمل ستة أيام بسبب ذراعي.

أنت يا سيدي. بماذا تنصحني؟ ماذا أفعل حسب رأيك؟ أعيل سبعة وأمهم، وأمي. ماذا تقول في المسألة يا سيدي بوالارواح؟

- استأنف الحكم.

رد سيدي بوالارواح، فبادره العامل مقطوع الذراع:

- لا بد من محام يا سيدي. لا بد من تحرك هنا وهناك لجميع الشهود والاتصال بالنقابة الصحيحة.

- استأنف والمصاريف عليّ.

- رد سيدي بوالارواح، فعانقه العامل مقطوع الذراع والدموع تنهمر من عينيه.

- ولكن هذا لا يدل على أن عيسى تحول إلى نقابي؟

- انتظر. المسألة لم تتوقف عند هذا الحد. بعد سبعة أيام، جاءه ثلاثة أشخاص سلموا عليه، وقالوا له:

- يا سيدي بوالارواح. زيارتنا لك ليست بسبب التبرك أو الوعد، ذلك نفعله في وقت لاحق إن شاء الله. نحن عمال في مؤسسة خاصة. مؤسسة كبرى.

عقدنا اجتماعا بحضور جميع المعنيين. انتخبنا الفرع وانتهى الأمر. وبعد يوم واحد، صدر قرار من أولى الأمر بحل فرعنا. صدر القرار في الصباح. وفي المساء صدر قرار من صاحب المؤسسة بفصل هيئة الفرع عن العمل. نحن الثلاثة يا سيدي.

احترنا فيما نفعل يا سيدي. أضرب العمال ساعتين، فتدخلت الشرطة وكسرت الإضراب. كانت النتيجة ضحايا آخرين، اتصلنا بأولى الأمر، فلم يستقبلونا. يتهموننا يا سيدي بالتخريب، وبأننا شيوعيون عملاء للخارج. نحن يا سيدي لم نسافر إلى خارج مدينة قسنطينة منذ أن خلقنا. لم نتلق رسالة من خارج الجزائر منذ كنا. لم يخطر ببالنا أي خارج بالمرة، ولا نعرف ماذا يفعل بنا أو نفعل به هذا الخارج الذي يتهموننا بأننا عملاء له. حقا نحن نقابيون. هذه أول مرة ينتخب علينا.

- جندوا أنفسكم. جندوا إخوانكم.

- لكن الشرطة يا سيدي، انك تعلم أن الحساسيات لا تزال محتدة.

- اتصلوا بالعاصمة. اذهبوا بأنفسكم. بعضكم يذهب، وبعضكم يحاول إعادة تجنيد العمال.

- سنحاول يا سيدي.

- إن كانت المسألة تتوقف على كتابة عريضة كتبتها، أو على مال منحته لكم.

- نشكرك كثيرا يا سيدي. فعلا نحتاج إلى ثمن السفر إلى العاصمة.

- ولم يقصد هؤلاء الأنذال، عيسى المسكين؟

- انه شيخهم يا سيدي. مقدم زاويتهم التي يزورونها منذ خلقوا.

- على أية حال. هذا كله لا يدل على أن عيسى تحول إلى نقابي.

- انتظر. بعد سبعة أيام تماما. أصبح سيدي بوالارواح يقص عليّ، أن أباذر الغفاري، وأنا لا أعرف من يكون أبو ذر هذا – وقف على رأسه في المنام ثلاث مرات. في كل مرة كان يقول له:

- طريق الله أن تخدم عباد الله. طريق الله أن تقاوم أعداء عباد الله. طريق الله أن تكافح الاضطهاد والاستغلال.

توضأ وصلى يا سيدي، وغادر الزاوية.

بعد ساعات جاء رجال الشرطة يسألون عنه. ومنذ ذلك اليوم، وهو يتخفى. ينظم الاضطرابات ويوزع المناشير. ويتصل بالطلبة والعمال كما بلغنا.. أنا واثق من أن الجرثومة دخلته قبل اليوم، من الثورة، ولعل قبل ذلك. لا أمان في دار الأمان.

- عليه اللعنة في الليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى.

تمتم الشيخ عبد المجيد بوالارواح، وهو يشعر بالأرض تميد تحته، وبالجدران ترقص من حوله، وبصدره يثقل ويثقل. وبالمادة السائلة، تصعد إلى رأسه وتثقله.

وضع راحتيه على جبهته، وأغمض عينيه وهتف:

- إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، لها يا سيدي راشد لها. حركها بهم وبكفرهم وفجورهم.

غادر الشيخ عبد المجيد بوالارواح زاوية سيدي عبد المؤمن، وانحدر مع نهج أحمد هلال، متكورا متقاذفا، متدحرجا.

قابلته دار متكئة بجدرانها ونوافذها على دار أخرى، تاركة فجوة صغيرة ممرا للسكان، تردد، ثم وضع أصابع يده على جبهته، وانحنى ووسع خطواته، وسرعان ما وجد نفسه أمام فضاء كبير.

خربة على اليمين.

هنا كانت تقوم عدة دور، بطوابق متعددة، يتنفس فيها الناس، ويشربون ويأكلون، ينامون ويستيقظون. يحبون ويبغضون، يتأملون ويفحشون.

ناموا ذات مساء ولم يستيقظوا.

تحركت صخرة من تحتهم فتداوت جدران منازلهم فوقهم.

لربما خرجوا في الصباح لقضاء حوائجهم، لبيع مسروقاتهم أو لترقيع أحذيتهم، أو لشراء ثمر الصبار، وحينما عادوا لم يجدوا سوى أكوام التراب، تغطي أشلاء الصبيان والنساء.

في كلتا الحالتين، فإنهم استراحوا من انتظار الزلزال، من الإحساس المتواصل بالهلع والذهول.

واصل انحداره السريع. الأطفال يملأون جانبي النهج. قشور ثمر الصبار في كل زاوية. رؤوس النساء تتحرك في النوافذ الصغيرة. المظهر الخارجي للدور نظيف ..

ترى كم قنطارا من الدهن والطلاء أضافوه إلى ثقلهم وثقل المدخرات التي يخزنونها؟ إنها ملايين أطنان من غير ريب.

مسكينة هي الصخرة. لطالما صبرت وصابرت. يقين أنها تئن أنينا موجعا من الحمل الثقيل الذي عليها.

لن يمر طويل وقت، حتى تعلن عن احتجاجها بمنطقها الخاص. رجة. اهتزازة صغيرة ويفهم الجميع ما تعني.

يفهم جميع سكان قسنطينة الخطأ الفادح الذي ارتكبوه.

تنحى جانبا، ليمر رجل يحتضن امرأة ملتفة في ملاءة سوداء.

خطيبة عائد من أوروبا ولا شك.

تمتم. وحضرته جمل منسوبة إلى مسيلة الكذاب. يا ضفدعة ابنة ضفدعين. نتقي ما تنقين. نصفك في الماء ونصفك في الطين. فلا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين.

بصق خلفهما وواصل.

هاه. فضاء آخر على اليسار.

من هنا حافة الوادي، لأتأمل قليلا الوضع. انعطف. على اليسار يتواصل زقاق ضيق. فتاة في العاشرة تقف في الباب مستاكة مكتحلة، بيضاء. تحدق إليه في وقاحة .. المرحومة عائشة، زوجتي الأولى، كانت في سنها، كانت تشبهها، غير أنها لا تعرف التبرج مثلها. عليه الصلاة والسلام تزوج عائشة في التاسعة. أراد عليه الصلاة والسلام، أن يقول لأمته إن غواية الأنثى كأنثى تبدأ من يوم ولادتها ...

في الجنة، يقضي المسلم يومه الطويل الكبير، في افتضاض الأبكار.

روى عنه صلى الله عليه وسلم ذلك.

يعوض تعالى عباده الصابرين ما حرموا منه في الحياة الدنيا. أنا أريد أن يمنحني الأطفال. كل بكر أفتضها تلد في الحين توأمين. ما ذلك على الله بعزيز.

الجنة مسطحة ولا ريب .. لن تكون مبنية على صخرة مثل قسنطينة هذه.

براءة هذه الفتاة المتبرجة، مثيرة. اللعنة عليها وعلى إبليس. أية قدرة تخرجها من هنا عروسا. فتيات هذا الحي آخر الفتيات يكتشفن للزواج. في حالة ما إذا تزوجت. ستصعد راكضة، تسابق الخطى حتى لا يتخلى عنها ثانية.

التفت إلى اليمين، فقابلته خربة كبيرة، بين البنايات المتآكلة وبين حافة الوادي. قرر أن ينزل حتى السور المثلوم في كل متر منه تقريبا. نزل بحذر، حتى أوشك أن يحاذيه.

الأخدود العظيم يخيف. الماء الداكن يجري في بطء. بعض الصخور تبدوا أنها على وشك الانهيار.

كل البنايات التي تقع على الجانب الشرقي للصخرة لن تملأ هذا الفراغ.

رفع بصره: هنالك الغابة. السطحة المنصورة وطريق سيدي مبروك. يا لها من جزيرة خضراء. لم ترك الناس هذه المنطقة، وحشروا أنفسهم هنا؟

في الأسفل، على حافة الأخدود: معمل التبغ. لا يزال يحتفظ بلافتته، بن تشيكو ... دار الطلبة. لم يمر طويل وقت على تدشينها وامتلائها بطلبة معهد ابن باديس، حتى اندلعت الحرب. بدأت تفرغ وتفرغ حتى لم يبق فيها طالب أو أستاذ. لو لم تعجل الحرب، لأكملنا الطابق الرابع في البناية. تجري الرياح بما لا تشتهيه السفن... بنايات غامضة الهوية، ثم ، آه. هذه البناية اللعينة. الخط الكبير الذي عليها يعلن: ممنوع التدخين، باللغتين العربية والفرنسية. خزان البنزين الكبير.

في باب القنطرة خزان الحبوب، وفي سيدي مسيد مصنع الكهرباء. وفي سيدي راشد خزان البنزين.

المدينة مجهزة بإمكانيات اكتفاء ذاتي لمدة أشهر على الأقل.

حين تتحرك الصخرة. حين يحدث الزلزال المهول، يهوي خزان البنزين إلى وادي الرمال ويصب فيه بنزينه، لتشتعل النار، متمكنة في كل مدخرات قسنطينة، مرتفعة إلى عنان السماء.

كلما كان هناك أسفل. وكلما كان هناك عالم متردّ، كان الخطر على المدينة.

سيدي مسيد يمتص الجزء الأعلى من المدينة، وسيدي راشد يمتص الجزء الأسفل، ولن يبقى، إلا ما كان مسطرا على الورق من تاريخ، أو في اللوح المحفوظ من آثام.

ألقى نظرة أخرى على الوادي. شعر بالدوار. أغمض عينيه. فتحهما: الحمامات تطير بهدوء. إنها تغالب جاذبية كبرى. الطيران أجمل عندما يكون في الارتفاع، في الأجواء العالية. أما أن يكون هكذا في أسفل أخدود كهذا. تتأمله من فوق، فلا يبدو إلا مكابدة تحتمها ظروف قاهرة.

في الأقصى يبدو جزء من جسر سيدي راشد، النائم فوق أقواس مضاعفة من الصخور والإسمنت المسلح. يتحدى العربات الضخمة والشاحنات الكبيرة.

مهما كان هول الزلزال، ومهما كانت قوته وعظمته، فإن هذا الجسر لن ينكسر.

سيظل جسرا، ولو بقي بدون واد يمر تحته، ولو ذهبت قواعده.

انه شحنة من إصرار الإنسان على التحدي والمكابرة. بل، إنه رمز لطموح الإنسان إلى المساهمة في الخلق.

من يكون فوق الجسر، في حالة اهتزاز الصخرة، وتذاوب المدينة، يكون حظه في النجاة كبيرا. لا ريب أن المولى، بالتماس من سيدي راشد، سيلهم كل عباده الصالحين إلى التواجد فوقه. سيجد كبار ملاك الأراضي، وأصحاب المصانع والمتاجر الكبيرة، وإيمة المساجد، أنفسهم، فوق جسر سيدي راشد لحظتها. لحظة الشيء العظيم.

شعر بشيء من الارتياح، تراجع خطوات، ثم ولى. قابلته البنية المستاكة المكتحلة. استرق النظر إليها: صدرها منتفخ. خصرها ضامر. عجزها ممتلئ. وركها منفرج. فخذاها ممتلئان. ساقاها مفتولان.

"السكن الذي كان يضم أسرة، أضحى لعشر.." الناس ينام بعضهم فوق بعض. كل الأمور مختلطة في المدينة.

- النهج محدود يا بويا.

- ومن أين أذهب إلى سيدي راشد؟

- سأل الصبي الذي حذره من الانحدار، وراح ينتظر إرشاده، وعيناه تجولان مع الجدران: هنا فقدت الأزقة والأنهج العناوين. الرائحة أيضا فقدت موجاتها. لم تعد هنالك حاجة إلى شخصية مميزة هنا. الكل كالواحد والواحد كالكل.

ليس في الجبة سوى الحلاّج.

هذا هو شأن العوالم السفلى. تتردى. تتردى، حتى تذوب. حتى لا يبقى فيها سوى سفليتها ..

- اصعد قليلا. لف مع أول زقاق على اليسار. واصل الانحدار مع نهج "كورناي" . تجد خربة واسعة. هناك أسأل.

بين قدمي الجسر. تحت أقواسه الضخمة، وبعد محل تنظيف العاهرات يختبئ سيدي راشد: هكذا انزوى. لا بد أنه

كان في يوم من الأيام، يحتل قمة، ثم انحدر شيئا فشيئا حتى استقرت به الأرض.

لا يجوز أن يرضى ولي من أولياء الله، بالإقامة في العالم السفلي.

- ما الذي أتى بي إلى هنا! ماذا أفعل؟حقا أنا في حالة غير طبيعية.

تمتم الشيخ عبد المجيد بوالارواح أمام باب قصير مطلي بالأخضر الداكن .. جئت تصلي ركعتين في ضريح سيدي راشد. ومتى كنت أومن بالأضرحة والمقامات؟ لقد حاربتها إلى جانب الشيخ بن باديس. ودعوت الناس إلى نبذها. إنها عبادة قبور، بدعة أبدعها العوام.

لا.

كنت تؤمن بها منذ كنت. حتى وأنت تخطب في المنابر، ضدها.

لأنها جزء من ماض كبير، هو أشبه ما يكون بصخرة قسنطينة، استلت منه حجرة، تحرك كله. إعادة النظر في العادات والتقاليد وحتى الخرافات، يسوق إلى إعادة النظر في كل أساس الحياة. المارقون يستغلون صيحات المخلصين من رجال العلم والدين، فيذهبون بعيدا.

لم تكن تتفق حتى مع ابن باديس.

كنت ولا تزال، ترى، أن كل ما يربط العامة بالله، جائز شرعا، حتى ولو كان عبادة الأوثان. لم تجاهر برأيك، ولكنك كنت شديد الإيمان به.

القول للعامة بعدم التعلق بقبور رجال العلم والدين، كالقول بعدم الصبر على قضاء الله، والثورة ضد الفقر.

الدين كل لا يتجرأ، وكل ما يربط العامة بالله وبالماضي دين. وكل محاولة لفصل الدين عن الماضي. عن الأيام والأشهر والسنوات والقرون. وما خلق فيها ونشأ واستطاع أن يرسب في ذهن العامة، إنما هي محاربة للدين ذاته.

قضى الأولون على المعتزلة وأهل الرأي، فلا كان المعتزلة ولا كان أهل الرأي. ناصر الأولون أبا موسى الأشعري وبنوا على وجهة نظره مذاهب، فلتستمر وجهة نظر أبي موسى الأشعري. حكم التاريخ بنصرة معاوية على علي، فلا فائدة ترجى من مبايعة علي من جديد.

الطريق معبدة. عبدها السلف الصالح، وكل إثارة للتشكك فيها، دفع للمارقين والملحدين وأصحاب البدع، إلى قطعها نهائيا.

- لأصلّ ركعتين في ضريح سيدي راشد.

- رفع الشيخ بوالارواح صوته يعلن عن قراره، واقتحم الباب الأخضر: حوش كبير مفروش بالإسمنت. في نهايته على يسار الداخل، المسجد، يليه باب يبدو أنه يفضي إلى سكن، ثم باب أخر واضح أنه لسكن، ثم سكن تجلس عند بابه عجوزتان. ظلت إحداهما منهمكة في تنقية الفريك،

وحولها قدر وعدة فناجين، بينما نهضت الأخرى تسأله:

- أجئت للزيارة؟

- نعم.

- تفضل سيدي راشد أمامك.

لفت انتباهه صورة رأس الغول على حصانه، وسيف السيد عليّ يشقهما ويقطعهما إلى جزأين. قرن حاجبيه، في استنكار، ثم انفجرت أساريره.

لا تفاصيل في الدين. ثم بماذا يضر هذا الرسم؟ إنه يقوي الاعتقاد بأن أعداء الله، ينهزمون، مهما كانت قوتهم وجبروتهم، إن الذين لم يرضوا بالسيد عليّ خليفة رضوا به بطلا. خلعوه عن الخلافة، وبايعوه على البطولة. العامة طفل يميل إلى السهولة، ويعوض ما هدمه أو حطمه، بشيء آخر يخفي عنه فداحة الخسارة.

سألت الشيخ في جامع الزيتونة، وهو يشرح شروط الإفطار المترابطة والمتكاملة: الدخول عن الحلق. الاستقرار في البطن. التقوت.

- حينئذ فالتدخين غير مفطر لفقدانه للشرطين الأخيرين.

- كل ما لم تجتمع فيه الشروط الثلاثة غير مفرط على مذهب مالك.

- ولم نخفي عن العامة ذلك؟

- لأنها لا تستطيع أن تتصور ذلك. ولأنها وهذا أهم، لا تستطيع أن تقف عند حدود التدخين.

المسجد جد صغير. حوالي عشرة أمتار مربعة – المنبر المتواضع على اليسار، الضريح على اليمين. الزرابي الاصطناعية تغطي السقف والجدران والأرضية، ثريات النحاس. وحيدة النور، ملصقة هنا وهناك دون أن تتصل بالكهرباء، أو يتم حتى للتفكير في ذلك على ما يبدو. بعض شمعات قرب الضريح المغطى بخرقة خضراء بالية.

لبثت العجوز خلفه. كأنما تحرس ممتلكات سيدي راشد من السرقة، بينما واجه هو المنبر وكبر.

***

يا سيدي راشد، يا ولي الله. قضيت تسع ساعات في الطريق قادما من العاصمة في هذا الحر، لأمر يهمني، ويهم جميع الصالحين الذين أورثهم الله أرضه. لا أخفي عنك، فأنت تعلم ما في النفوس. جئت أقطع الطريق بين الحكومة وبين أراضي، بتسجيلها على أقاربي، شرط أن لا يحوزوها أو ينالوا ثمارها إلا بعد أن أموت. لكن يا سيدي راشد يا ولي الله، لم أعثر على أحد منهم. الأول استشهد. والثاني ضابط. ضابط سامي يحل ويربط، والضباط يا سيدي راشد، حتى وإن لم يكونوا يقاسمون الحكومة آراءها ويثقون في سياستها فإنهم لسبب ما، مخلصون لها، ومن كان منهم يهتم بالمال والعمل على جمعه، فإنه يسعى إليه عن غير طريق الفلاحة. أعمال ومشاريع. وآلات عصرية يا سيدي راشد. والثالث. آه من الثالث. بعد أن كان دليل العائلة نحو الجنة:

زاهدا، متعبدا، مقدما في زاوية سيدي عبد المؤمن. آه. صار. صار. ماذا أقول لك يا سيدي راشد. صار شيوعيا، يحرض العمال على الإضرابات، ويشوش أفكار الطلبة، ويحث الحكومة عن المضي إلى أقصى حد في استيراد المشاريع والخطط الإلحادية الجهنمية.

وعدتك كبيرة يا سيدي راشد، فقلوبهم ملأى بالحقد. والنصح لا يفيدهم، فرؤوسهم محشوة بالغرور. وليس هناك سوى حلين:

نار فتنة تأكلهم.

زلزال عظيم يأتي على الرعاع الذين يفكرون في منحهم أرضنا؟.

وعدتك كبيرة يا سيدي راشد.

- والزيارة؟

تساءلت العجوز، وهي تفتح له الباب، فبادرها:

- وعدت. سأعود عندما يقضي سيدي راشد حاجتي. سارع إلى الخروج، وراح يصعد الدرج نحو الجسر، وهو يشعر بارتياح كبير ... البنية المستاكة المكتحلة مثيرة، نسيت أن أطلب الذرية، لم أقرر أن أتزوج بعد. سأتزوج بامرأة ثانية، بفتاة صغيرة. بل، قد أقصد بنية الباب المستاكة المكتحلة بالذات.

- أعدك يا سيدي كل سنة بلعبة شمع مقابل حمل تحصل عليه من حيث شاءت.

أه. هي ذي نهاية الدرج الحديدي المتعب. جسر سيدي راشد بدوره ينسى المرء في الهوة التي بينه وبين الأرض.

في الأسفل، زقاق "الرامبلي" لا يزال على ما هو عليه. سوق خردوات من كل نوع، النساء والرجال من جميع الأعمار، يجلسون وسط دخان فرن مخبزة وأمامهم رقاع نيلونية أو ورقية، وقماشية، فوقها مفاتيح فاسدة ومسامير معوجة، وحنفيات مكسورة أو ثياب مهلهلة، وأحذية متهرئة، وأعقاب خبز متسخة، وسميد مغلوث. قشور ثمر الصبار في كل شبر.

فوق. رحبة الجمال والسويقة، والحي كله، يبدو قصبة الجزائر مقلوبة. هذا القرميد من عهد نوح. هذه زريبة قديمة متآكلة مقلوبة. الجدران مائلة إلى المنحدر بشكل فظيع. دور كثيرة متصدعة، دور كثيرة مهجورة. دور كثيرة مستندة على بعضها البعض.

على سطوحها قطط. بعضها نائم وبعضها يسير، وبعضها يحدق في الفضاء، إلى جوارها قرنيات التلفزة موجهة إلى الشمال والجنوب والشرق والغرب. في نوافذها خرق، ووجوه نساء، وقوارير ماء مغلفة بخرق، وفلات في

علب الطماطم، ونوار خداوج في أوان طينية. وعقود فلفل بعضها أحمر وبعضها أخضر.

في المقابر يضعون الماء فوق القبر، ويغرسون عند رأس الميت هذا النوار، هذه مقبرة واقفة، سيمددها سيدي راشد عما قريب، إن لم يقلبها رأسا على عقب.

هنا أيضا الروائح بلا موجات. السيارات عجلى، كأنما أصحابها غير مطمئنين إلى الجسر، الناس هنا أيضا يتزاحمون، معظمهم عجائز وشيوخ.

في الأمام، تقوم خلفية الساحة الكبرى، بناية المسرح والبريد، ومقر الحرس الفرنسي المتجول، ثم وعلى امتداد البصر، يسارا، وانطلاقا من نزل "سيرتا" تقوم العمارات الشاهقة ذات النوافذ الكبيرة، والألوان الجادة، متخللة بأشجار الكلتوس. في شبه هلال، في آخره حصائد صفر، وطبائب حمر، وبنية، ورواب عارية، متكاملة، تمتد حتى الأفق.

عندما يقع البصر على الأرض، محصودة أو محروثة، يشعر الإنسان بالاطمئنان إلى أن نعمة الله، لا تزال مسبوغة

على عباده الصالحين، وأن رحمته لا تزال نازلة عليهم، وأن كل منكر يمكن أن يأتيه المارقون إلا أن ينسوا إرادته فيها، ويخرجوا عن ناموسه.

الأرض لمن يملكها. لمن يملكها، وليس غير ذلك، وملكية الأرض لا تتأتى لكل واحد، كالموهبة كالذكاء كالعبقرية. والأرض أرض وليس إلا. ملكية مجردة، فوق الغنى وفوق الفقر، فوق الشبع وفوق الجوع، فوق ثمارها وتناجها.

الأرض أرض.

ملكيتها تعني أكثر من ملكيتها. إنها الشرف. السيادة. السلطة. الارتقاء إلى مصاف الرسل والأنبياء، بالنسبة لمن لا يملكها.

وهؤلاء. آه. هؤلاء يفهمون الأرض فهما سوقيا. فهما شيوعيا. ماديا، يفهمونها غنى وفقرا، يفهمونها مالكا وخماسا، ومحصولات تصدر بالعملة الصعبة، أو تفرض عليها ضرائب باهظة.

وعدتك كبيرة يا سيدي راشد. فعجل، عجل. خير البر عاجله. نار فتنة آكلة، أو زلزال مهول. اقض على الحكومة وعلى الفقراء والعمال والطلبة والنقابيين، أعد بعث أمة جديدة، ليس فيها سوى نحن، السادة والأشراف.

شعر بالضيق، وبالثقل، وبالمرارة، فأسرع في سيره، وهو يتمتم:

- بقي الغرابلي والبرادعي. هذان لن يكونا ضابطين أو شهيدين، أو شيوعيين، ولا يمكن حتى تغيير مهنتيهما أو تجارتيهما. أظن هذا. آمل هذا. ومن يدري مع آخر الزمن هذا.

كان قد بلغ منتهى الجسر. على اليسار، بناية الحرس المتجول سابقا، فمحطة بنزين، فمنحدر شارع حيث تقف سيارات الأجرة المتجهة نحو عنابة أو القادمة منها، في الزاوية مقهى المستقبل، وعلى اليمين نصبة كبيرة للحلويات والعطور، يليها مدخل "الرمبلي" وأنهج تصعد نحو الساحة.

- لا يزال الناس في هذه المدينة بحاجة إلى العطور.

كانت السيارات تتواصل مع الشارع صاعدة نازلة. استدار يمينا ورفع رأسه. نهج بوناب علي. هذه السينما لا تزال هنا. ريش دجاج متناثر. آهاه مطبخ. بدأت الروائح تستعيد شخصياتها. عجوز في ذراعها خبزات، تجلس تحت الحائط وتتحدث بصوت مرتفع إلى شخص غير مرئي:

- قلت لك يا أختي إن خبزهم يابس لا يصلح إلا في المرق. على كل حال إنهم يعطوننا كثر الله خيرهم. حيثما شاء الحي وضع رأس الميت. قلت لك إن ابنها قتل في مزبلة بولفرايس، وأنها جرحت في ثديها وفي ذراعها. ظلت تتشبث بعلبة السردين، فما كان منهم إلا أن قطعوا يدها بالساطور.

تحت الجدار، وعلى كامل الطوار، عجائز وشيوخ، وكتبة الحروز، وكتبة عموميون، وضاربو خط الرمل وقارئو الطالع. قالت عجوز:

- وحيدي يا سيدي الطالب. قرة عيني، وكل ما أملك في الدنيا. سجل نفسه للذهاب إلى فرنسا اشترى تذكرة في الباخرة، وهو ينتظر. أكتب له حجابا يمنعه من السفر يا سيدي الطالب، وحقك عليّ. الحق أن المسكين غير محظوظ، وإلا كان يجد شغلا هنا مثل أترابه. أكتب لحظه أيضا سيدي الطالب.

- لن يسافر. وإن اقتضى الأمر أن تفوته الباخرة. ابنك يبقى بين يديك يا امرأة. إلى جانبهما امرأة في ملايتها عند ركبتي طالب.

- خطبها اثنا عشر شخصا وعدلوا يا سيدي الطالب. لا عوراء ولا مكسورة، ابنتي جميلة، تخيط وتفصل وتطرز، أصابعها سحرية. كل ذنبنا يا

سيدي الطالب أن الأول الذي تقدم إلينا يخطب يدها، عدل عنها وتزوج بجارتها.

- تتزوج الثالث عشر بحول الله.

- إن كان في إمكانك أن ترد إليها الحادي عشر فافعل، فهو بلا أم، ويحوز سكنا بعد.

- ستتزوج الحادي عشر إنشاء الله.

إلى جانبها، طالب يقرأ جريدة، وإلى جواره بقليل كهل في زي مغربي، يرسم على رمل في منديل خطوطا ودوائر، ويخاطب ريفيا في مقتبل العمر:

- إنها خضراء. أمامك خضراء وخلفك خضراء. أنو وفتح. يقوم بينك وبين حظك، ثعبان، ذو سبعة رؤوس. وتجري خلفك "تابعة" يهودية ذات سبع أرواح. فتح وعليّ أنا قطع الرؤوس وحش رجلي التابعة اليهودية. السفر الذي تنويه أجله. فستخضر

حوالك، لا ترحل من مكانك، فستأتيك ورقة حكومية، تفرح قلبك.

- لن يراها بجاه سيدي راشد.

تمتم الشيخ عبد المجيد وواصل طريقه، متسائلا عما يشده إلى ما حوله، وكأنما هو سائح. ورفع بصره فوق يقرأ لا فتة مكتوبة بالأخضر والأحمر على بياض: جبهة التحرير الوطني، مصلحة الدعاية والأخبار .. في حين يصل إلى سمعه:

- أكتب. أكتب. أكتبها إلى الرئيس ذاته، قل له، إن عيسى بو الشعير، الذي كان معك في الجبل، مظلوم مقهور. تزوج ككل عباد الله هذه أربع سنوات. لم يتفق مع زوجته، كأي واحد من عباد الله، فطلقها وأوصلها إلى دار أبيها وتركها. شارعته وحكمت عليه بخمسمائة دينار تعويضا. المبلغ بسيط لكن عيسى لا يعمل، عيسى بو الشعير مع الأسف لا يقرأ ولا يكتب، وعيسى بو الشعير مجاهد، ولا

يمكن أن يحط من قدره ويقبل أي شغل. عيسى بو الشعير نسي المسألة كما ينساها أي واحد من عباد الله. بعد أربع سنوات يتلقى دعوة من المحكمة، ويحكم عليه بستة أشهر سجنا، وبألفين وخمسمائة دينار غرامة.

أكتب. أكتب. قل له إنك تعرفني، فقد كنت معك في الجبل. وقل له إن لم تجدني في عنواني، ، إذا لم تعجل تجدني في السجن.

- البرادعي في رحبة الصوف. والغرابلي في باردو. أبدا بباردو فهو أقرب من هنا.

ردد الشيخ عبد المجيد بوالارواح، ولفّ يسارا، وكأنما هو هارب من أصوات نهج بوناب علي، التي تجد طريقها بسرعة إلى آذان المار من هناك خاصة عندما يكون سائرا ببطء.

4

- مجاز الغنم

هم الشيخ عبد المجيد بوالارواح، أن ينعطف مع نهج شيتور عمر منحدرا خاف بناية البريد، بعد أن أعجب، كيف قطع نهج بوناب علي دون أيما فائدة أو قصد. بيد أن الصف الطويل الواقف على يمين النهج، والصوت المنبعث من مكبر، ينادي بأسماء وألقاب جعله يتراجع مستنكفا.

ركز بصره في اللافتة فقرأ: دار النقابات. تأمل وجوه الشبان، فلم يقرأ فيها شيئا. نظراتهم عميقة ثابتة. أصواتهم رصينة. حركاتهم هادئة.

كلهم يجلسون عند رأس محتضر ميئوس منه.. ابدأ من هنا يا سيدي راشد.. بهذه البناية وبهؤلاء العققة.

خرج ضابط من البناية، واتجه إلى أعلى بعد أن نزل الدرج. توقف الشيخ عبد المجيد وفكر في انتظاره.

- أسأله عنه، عن الطاهر بوالارواح، فلا شك أنه يعرفه. الطاهر بوالارواح لابد أن يكون أملي في إنقاذي، في إنقاذ كل مالكي الأرض والأشراف والأيمة. أسجل له أرضي كلها، وأعقد له الصلات مع مالكي الأرض، وأقدم وعدة لسيدي راشد في نصرته. نعم يجب أن ينتصر في مشروع كبير أكبر من الزلزال، وأكبر من الفتنة الآكلة. لا. لن أسأله هو، أسأل عبد القادر بن عمي عنه، فلا بد أنه وثيق الصلة به.

لقد ألهاني التعليم عن لعب الدور الأساسي لمالك أرض كبير. بل، إنني بسبب التناقض الأزلي بين رجل العلم، ورجل المال، كما يقول الشيخ إيدير، لم أستطع أن أنشئ سندا قويا من أفراد أسرتي. كنت آمل أن آتي من صلبي، بمن يشدون أزري، لكن الرياح تجري بما لا تشتهيه السفن.

سأبدأ من جديد، وفي الحق هذا هو الوقت المناسب للعمل الجاد، ومهنة التعليم بالذات، والإشراف على مؤسسة تعليمية كبرى، يعني ما يعني. يجب محاربة العدو بكل الأسلحة. وفي ثانويتي، يجري العمل باستمرار، على قطع خط الانحراف والمروق أمام عدد كبير من شبان يتأهلون للقيادة في جميع المجالات. وأكثر من ذلك للدخول إلى الجامعة لمواجهة طغمة الشيوعيين.

ترى ماذا يفعل هؤلاء الشبان هنا. ورفع صوته يسأل شيخا يستند على جدار المقهى:

- ماذا يفعلون هنا ؟.

- يتقدمون للجنة الفحص، هؤلاء شبان الخدمة الوطنية، سيشقون الطريق في قلب الصحراء.

لم يعلق وواصل انحداره .. تأمل لائحة المقهى وتساءل عن معنى جملة "مؤسسة مرتبة" المكتوبة بلون مذهب. ألقى نظرة على داخلها: معرض لسكان الولاية كلهم على مختلف

الأعمار، الشيوخ يجلسون قبالة شبان يحتضنون فتيات دون حرج.

لا حدود هنا بين الأعمار والمهن والمراتب الاجتماعية، وحتى بين القدرات الشرائية.

كلهم في ذهول من أمرهم، إنهم تحت ضغط كابوس عظيم، بل، إنهم في دوامة كبرى، يعانون كقاع النهر، دفعا قويا.

اقتحم الحديقة، الزهور متفتحة يانعة. الأشجار ساكنة باهتة. الومد راس. الحركة قوية.

حتى هنا يبيعون.

طفل أمامه سطل حمص ندى، قبالته كهل بين ركبتيه سطل بلح، عند رأسه لافتة خضراء كتب عليها ممنوع الجلوس على الحواشي. طفل بين رجليه سطل ثمر صبار، وفي يده خنجر كبير يتهدد به عدة أطفال يحاصرونه. مقاعد حجرية ملأى بالجالسين من مختلف الأعمار والهيئات.

وسطهم بائع شاي يغلي إبريقه الكبير على جمر كانون. بائع ثان، بائع ثالث، بائع رابع، الباعة نشيطون في ثيابهم الريفية المتسخة وأيدي الجالسين تلوح لهم، تطلبهم أو تعيد إليهم الكؤوس. مصور بآلته العتيقة يحتل ركنا. مصور آخر. مصور ثالث ورابع. دراجات صبيانية على مختلف الأحجام.

في كل شبر من المدينة تجارة. في كل خطوة بائع وشار. واص ونصاب أيضا لقد بارك الرسول التجارة .. ولكن ليس بهذا الشكل المتردي.

هذا تسول أكثر منه تجارة.

اللهم لا تبارك لهم في تجارة أو سعي، واقطع دابرهم، تركوا قراهم وبواديهم، وجاءوا يتظاهرون أمام الحكومة بالفقر والعوز.

قطع الطرق المتعددة في اتجاه نزل "سيرتا".

مظهره الخارجي متواضع. ترى ما يكون عليه الوضع في الداخل؟ومن يسكنه من الجزائريين؟ يقين أن الطاهر بوالارواح ينزل به حين يمر من هنا.

التفت مستندا على جدار النزل، وراح يتأمل دار الفلاحة. لم تعجبه الرسوم.

بدل أ يصوروا الجرارات والخيول، والفرسان، راحوا يرسمون الحصادين والحراثين والحطابين. كيف رضي المعمرون والآغوات والبشاغاوات بهذه الرسوم، هنا، في قلعتهم الحصينة هذه؟لم أتمكن من اقتحامها، فقد كنت جد فقير بالنسبة لروادها. ومع ذلك كانت لي اتصالات وثيقة بجيراني المعمرين الأعضاء فيها.

- تدخل جهنم يا ابن خلدون، أنت صاحب بدعة، ولست مؤرخا. إنك زنديق ذكي، وجدت طريقة خبيثة لإعلان زندقتك دون أن يلحقك ضرر.

تمتم وواصل الانحدار. بعد النزل مباشرة تبدأ المنازل الأرضية، على اليسار. أما على اليمين، فينطلق سور

الشارع الذي يفصل " باردو" عن الكدية. مقهى الكواكب الثاقبة. موقف شاحنات المسافرين الحكوميين، مقهى ألف ليلة وليلة. قرقعة الحجر تتواصل: هذا المجذوم الأنف لا يستحي أن يلعب مع شبان صغار:

- يا قهواجي.

- حاضر.

- قهوة.

- شاي.

- بن هارون.

- العربون.

- العربون أولا.

- لا هذه في الطرح الأول.

قال مجذوم الأنف، فتمتم الشيخ عبد المجيد بوالارواح:

- عجل يا سيدي راشد عجل.

بينما ارتفعت ضجة في الزاوية الأخرى.

- خاط الحجر.

- حق ربي لا.

- اللعب مكشوف، هذا خروج عن القوانين.

- لقد سقطت مني الحجرة.

- خلط. هذا لعب "السطيف".

- سطيف أو عنابة. المشروبات عليكما شئتما أم كرهتما.

أثقل خطاه، ثم راح يوسعها. علبة شمع يا سيدي راشد. صحراء الجزائر فارغة. إذا ما صار الطاهر بوالارواح يوما كما أريد، ينفي جميع من ليس له متجر أو وظيف أو أرض أو شغل في معمل أو في أرض إلى هنالك. صاحب هذا المتجر المغلق لم يجد اسما له سوى هذا: ملابس الجازية، يعني المرأة الجميلة ولا شك. آه. هذا المسجد الفخم. يا له.

وقف يتأمله، بينما بلغ سمعه صوت خافت:

- كان سينما، اشتراها من فرنسي بثمن جد بخس. عندما أصدرت الحكومة قرار تأميم قاعات العروض السينمائية ساءه الأمر. اللعين لم يجد وسيلة يعلن بها عن معارضته، سوى هذه، حولها إلى مسجد.

- حسنا فعل.

علاق الشيخ عبد المجيد في سره، بينما واصل الصوت الخافت:

- اللعين، يوم كان يضع دخولها في جيبه لم يفكر في تحويلها إلى مسجد، ويوم رأى أنها ستتحول إلى مدارس أو مستشفيات أو معامل قرر أن يجمدها. لم يرم إلى تجميدها فحسب وإنما إلى الإعلان للناس أنه ليس ضد التنازل عن بعض ممتلكاته الكبيرة، وإنما ضد التأميم، ضد الاشتراكية.

- انه بطل.

تمتم الشيخ بوالارواح، بينما راح أحد الشابين الواقفين قربه يعلق:

- حتى الحكومة التي تنطلي عليها مثل هذه الألاعيب، الله يهديها.

- ما دام الأمر متعلقا بسينما واحدة، أو بنسبة ضعيفة، فلا يهم كثيرا. المهم أن تجارة السينما قطاع عام، تنتفع به البلديات.

التفت إليهما الشيخ عبد المجيد بوالارواح يحدجهما بنظرة مستنكرة، فابتعدا عنه. استرعى انتباهه لافتة في الجدار المقابل، عند درج يصعد إلى النهج الأعلى .. " قانون غرامون 1851 ممنوع تعذيب الحيوانات ". التفت إلى المسجد. ابتسم، ثم واصل الانحدار وبصره معلق بالكتابات على الجدران: شنتلي وإخوانه نقل المسافرين: قسنطينة، عين البيضاء، خنشلة، تبسة، صدراته، بلدية، بلدية قسنطينة، مصلحة المياه والإصلاحات العامة.

- ألف يسارا تقديرا في الطريق.

قرر ثم توقف فجأة.

- الشرطة، الشرطة.

صاح أحدهم، فهرول عشرات الأطفال من جميع الاتجاهات هاربين بأوان ورقاع ملآى باللحم، الخناجر والسواطير في أيديهم.

مرت سيارة شرطة دون أن تتوقف، عاد الأطفال متراكضين يتسابقون إلى احتلال الأماكن. ارتفعت صيحة. تجمهر الأطفال. سارع بعض الكبار.

كان هناك طفل ممدد، والخنجر في بطنه، والدم يسيل.

- وقع على خنجره.

- لقد دفعه.

- لم يدفعه أحد.

- سيموت.

- آي. آي.

- أوقفوا سيارة واحملوه إلى المستشفى.

- عرقله عمار برجله.

- لا بوجمعة.

- وحده. وحده وقع.

- عندي سبعة رؤوس. أتشتريها مني ؟.

- إنني مورط مع عشرين كرشة.

- لقد مات.

اختفى الأطفال بلحمهم، وبقي الطفل ممددا والدم يسيل منه، وبعض رجال وعجائز يتحلقون حوله، بصق الشيخ عبد المجيد بوالارواح، وشعر بغبطة، وبصفاء في داخله. واصل طريقه، منحدرا مع الدرب الحجري، الواسع الدرجات.

جذب انتباهه عندما نزل، رائحة عفونة قوية. فالتفت نحو مصدرها. من تحت البناية البادية، ينز ماء آسن.

على اليسار سور من الأسلاك الشائكة، حول ثكنة كبيرة، نصفها يحتله الجيش، ونصفها حول إلى مخزن للمواد الغذائية.

- هنا أيضا مخزن ؟.

على اليمين، يتواصل الجزء الخلفي للشارع. مبنى طيني، مغطى بصفائح قصديرية.

مبنى قصديري مغطى بطين، عدة مساكن هناك، الخرق والأخشاب والصفائح متداخلة. والمياه الداكنة تنساب منها متخذة مجاري متفرعة، لكنها تلتقي كلها عند حافة الطريق.

عندما يختار سيدي راشد الحل الثاني، ويحركها بهم وبمنكرهم وفجورهم، لن يضطر إلى جهد كبير هنا. يكفي أن تهوي عمارة واحدة من عمارات "الكدية " على هذه الأكواخ لتطمسها. مجاري المياه وحدها تقذف بها إلى وادي الرمال.

برزت ثلاث نساء سافرات من منعطف، وانحدرن كأنما يواصلن طريقا طويلا. استرق النظر إليهن.

- في مقتبل العمر، لكنهن شاحبات، على وجوههن مسحة سوداء، عيونهن منتفخة، واحدة ترتدي سروالا، وأخرى ترتدي ثوبا فضفاضا، والثالثة عارية الفخذين.

- يقول نذهب إلى وهرن. نقضي أسبوعا ونعود.

- لا لن أذهب إلى إي مكان.

- وماذا يشدك إلى هذه المقبرة. كأس البيرة فيها أغلى من ماء زمزم.

- لكن لا نعرف صاحبيه.

- وماذا يهمك فيهما.

- أنا لا أغادر قسنطينة في فترة الأعراس هذه.

- أوه ليلة كاملة وأنت ترقصين، مقابل خمسين دينارا ينتزعها منك فتاك في الصباح. اهربي أياما إلى وهرن معنا، وسيفرجها الفراج.

عندما بلغنه رفعت إحداهن صوتها تغني: "يا جاري يا حمودة. يا جاري دبر عليّ ".

امتلأ أنفه برائحة عطر رقيقة، فتنفس ملء رئتيه. وحنى رأسه خلفهن.

انقطعت رائحة العطر، وخلفتها رائحة تنونة غريبة، رفع بصره، فقابلته قطع صغيرة سوداء، تغطي مساحات شاسعة من الساحة الترابية، وجانبي الطريق. تأملها فإذا بها جلود معز.

تراءى له الطفل الملقى والخنجر في بطنه، وتراءت له أيدي الأطفال ملوحة بقطع اللحم والخناجر والسواطير.

بصق، وواصل السير ...

لو لم تكن المسألة على غاية من الأهمية لما تحركت أبدا من العاصمة، أو على الأقل، لاسترحت في نزل حتى نهار الغد. لكن لا. على المرء أن لا يؤجل عمل يومه إلى غده. ليس من السهل سبق حكومة. بالباي يقول إنني متأخر جدا.

حقا أنا متأخر، لكن ليس كثيرا جدا، فبحكم انقسامي إلى فلاح وإلى مدير ورجل علم، بدر مني نوع من التهاون، ليس تهاونا بمعنى الكلمة، لكنه غفلة، وحسن ظن في غير محله .. الحق أن سوء الظن من الحزم. خدعونا.

كشفوا عن وجه وأخفوا وجوها.

المهم. المهم أنني هنا. قد أجد ابن عمي عبد القادر الغرابلي أبا لسبعة أو ثمانية أطفال، فاتفق معه وأسجلها باسمهم جميعا. ابن أخي أولى في الحق. الطاهر الضابط السامي الذي يحل ويربط. لكن أين أجده؟عبد القادر يدلني عليه ولا ريب. لو كنت أعلم أن الطاهر بوالارواح النشال، يصل مثل هذه المرتبة، لأقرضته يومها المبلغ الذي طلبه دون وهن، لكن، ماذا في وسع المرء أن يفعل؟ الدراهم عزيزة، والفرنك الذي يخرج لن يعود، ثم إن التجارة صعبة، والطاهر لم يتدرب عليها، فكان من حقي أن لا أثق فيه. أنا عمه، ومن حقي عليه أن لا يحقد عليّ.

- معمل المحركات حسب ما يقولون إنجاز عظيم يا أخي.

- الحق أنه يناسب جدا قسنطينة، العاصمة الفلاحية للشرق الجزائري كله.

- الأمور تدرس كما ينبغي. خبراء ومهندسون، وعلماء.. الجزائر تتقدم.

- ماذا أقول لك؟نعم ولا؟يد تبني وعشرة تهدم. الدولة تبني المعمل، وأبناء الكلاب لا يشغلون فيه إلا بالرشوة والمحاباة ...

- المهم.

تركهما يواصلان الحديث ومر متثاقلا.

الشمس حارة. اللون الداكن بدأ يعاودني.

في حالة الزلزال، نزل "بانوراما" يسقط هنا. يهرب التراب قليلا من تحته، فيهوي متدحرجا. المعمل الذي

يتحدثان عنه، يثقل كاهل الصخرة أيضا، يفقدها توازنها على الأول ..

الأغبياء ..

انتصبت أمامه عمارة داكنة، غير متميزة الطوابق، تنبث في نوافذها عقود الفلفل والخرق والأواني التي لم تعد صالحة للاستعمال. ناطحة سحاب الحي، تتحدى وتباهي نزل "بانورما".

يقين أن سكان الحي يتناوبون السكن فيها. تركوها سوداء هكذا نزولا عند رغبة سكان الحي المقابل، حتى لا تحسب عليهم ولا شك، وحتى لا يلفت النظر سكن آخر في المنطقة غير سكنهم وغير بانورما العظيم. معقول. ثم أن صبغها بأي لون آخر، يشعر الجيران ساكني الأكواخ، بالحيف والظلم.

هكذا يستوي الماء والخشبة. أوشك أن أصل. انعطف مع العمارة يسارا ويقابلني الحانوت على مسافة خمسين مترا، عبد القادر مسكين لم أره منذ الحادثة، سيتعرف عليّ حالما يراني ولا شك.

في المنعطف التحق به شيخان يتحدثان بلهجة قريته.

- لكنه مفخرة يا سيدي. درة في قسنطينة البهجة.

- في الجزائر كله.

- مبني بتبرعات الشعب.

- وفي الحقيقة السلطة هي التي تحث على التبرع.

- لا يزال الإسلام.

- والحمد لله.

- إلا إنني استثقل نوعا ما، الاسم، مسجد الأمير عبد القادر! الأمير عبد القادر؟!

- حقيقة. الأمير هذه زائدة. لو قالوا سيدي عبد القادر لكان معقولا.

- بارك الله فيك. جامع بدون سيدي، كلام سوقي.

- المهم أن تتمسك سلطتنا بالدين، وأن تختار رجالها من الأتقياء الذين يخافون الله.

- خسئتما.

علق خلفهما الشيخ عبد المجيد، وظل لحظات يفكر...

لن يدخل الجنة ساكن من أهل الحي. لن تقبل لكم صلاة أو صيام أو عبادة، ولن يوثق لكم في دين. حتى النار لن تدخلوها. ستعاملون كالحيوانات والحشرات، وليس لدى الله أو ملائكته وزبانيته وقت ليضيعوه في التفكير في أمثالكم. بعضكم يحشر مع الذئاب وبعضكم مع الكلاب، وأطفالكم مع القطط والجديان. خسئتما. تتحدثان عن الحكومة وتثنيان عليها. واحد معجب بمعمل المحركات، وآخر بمسجد الأمير عبد القادر، وآخر لست أدري بماذا، ربما بالنقابات أو بالشيوعية، أو بالسجون، عندما تكونون في صحراء عين صالح، أو أدرار، أو في صخور الهقار، أعطوا رأيكم في الحكومة أيها التعساء، يا من تجلبون السخط على الأغنياء، بوجودكم، وبثرثرتكم أيضا.

- السلام عليكم.

قال الشيخ أبوالارواح وهو يقف أمام حانوت تنبعث منه رائحة الشواء، وينظر في استنكار إلى الشاب الذي يقف وراء النار.

لعله ابنه؟ لكن ليس فيه من دمنا قطرة. من يدري مع فساد آخر الزمان؟ الزمان؟لعله أجير عنده.

- أين عبد القادر؟

- أي عبد القادر؟.

- صاحب المحل.

- أنا صاحب المحل.

- ومنذ متى ؟.

- من يوم الاستقلال وأنا هنا.

- ألا تعرف إلى أين ذهب من كان قبلك هنا؟

- إيه يا بويا. لم يبق أحد في مكانه. قبل إعلان الاستقلال، وقبل خروج الفرنسيين واليهود، اقتسم الناس مساكنهم ومتاجرهم. وقبل احتلالها، اقتسم سكان الأرياف والقرى مساكن أقاربهم ومعارفهم. هذه هي الدنيا، واحد طالع وآخر نازل.

- ألا تعرف أين ذهب صاحب المحل الأول؟

- يا بوي "باردو" هذا، لا يستقر على حال. تارة يحمله الطوفان. تارة يجرفه الانزلاق. تارة تقضي عليه الحكومة. تارة تأتي عليه النار.

- هذه المرة لن تقوم له قائمة.

- ماذا تقول؟

- لا شيء. أقول إن صاحب المحل الأول كان يسمى عبد القادر بوالارواح. كان يصنع ويبيع الغرابيل.

- لا بد أن ذلك كان قبل أن يعاد بناء الحي.

- ومتى أعيد بناء الحي ؟.

- ليس مرة واحدة. كلما فسد يعاد بناؤه. قبل أن اشترى هذا المحل كان هنا تونسي. آهاه. فطائري. تذكرت. اشتريت المحل من تونسي . نعم.

- لا حول ولا قوة إلا بالله. ألم يبق أحد هنا من سكان أو تجار الحي القدامى أسأله.

- من؟من؟ آهاه. حمانة البرادعي. الوحيد الذي لم يتغير، قال إن مهنته لا تليق في المدينة، وانه خلق هنا وسيموت هنا.

- وأين حانوته؟

- خلف هذا الزقاق. البرادعي الوحيد على كل حال.

انطلق الشيخ عبد المجيد بوالارواح حاقدا على ثرثرة الشواء ووقاحته، يتحدث معي كما لو أنني زبون عنده. الكلب، لا بد أنه يشوي لحم الكلاب، للكلاب أمثاله.

قابلته بناية أنيقة، استغرب وجودها، فراح يتأملها. مطلية بالأبيض والأزرق. ما هذه الكتابة التي على جدارها. معقول. المصحة البلدية. البلدية تهتم حتى بصحة سكان هذا الحي. رائع جدا وعظيم جدا. شيء آخر، قبالة المصحة تقوم مدرسة، ومدرسة كبيرة يا سيدي.

هذا هو النفاق. هذا هو إفساد الشعب. لا يعطونهم العمل، ويعطونهم الدواء والتعليم. ما سيكون دور من يتمكن من هذا الحي من دخول الثانوية أو الجامعة. إنهم بهذا يخربون الدين والأجيال. يجمعون بين أبناء الأغنياء والفقراء في ثانوية أو جامعة واحدة ويعطونهم معلومات واحدة. إنهم يناقضون إرادة الله ويقفون عرضة لها، ويفسحون المجال إلى الخارج ليصدر أفكاره الهدامة إلينا.

- مساء الخير.

- مساء الخير والهناء والعافية، دمك غير غريب عني.

- أريد أن أسألك عن غرابلي كان هنا، هذه سنوات طويلة. حانوته الآن صار يبيع الشواء.

- فعلا. فعلا. دمكما واحد. سي عبد القادر ذكره الله بالخير. تفضل، اجلس.

- أنا مستعجل، فورائي مهمة لابد من إنجازها في أسرع وقت.

- استرح قليلا فوق هذا الصندوق، فالعرق يتصبب منك. أطلب لك مشروبا.

- لا. والله لا. كثر الله خيرك.

- قلت لك يا سيدي. قلت لك، سي عبد القادر ذكره الله بالخير. لا بد أنه قريب لك.

- ابن عمي.

- نعم. نعم. حدثني عن ابن عم له، عالم وثري. لعله أنت.

- من حيث العلم، فنعم، أما من حيث الثراء فالناس، وخاصة الأقارب يبالغون – كما تعلم – ما كان مصير عبد القادر ابن عمي ؟.

- قلت لك يا سيدي ابن سيدي. الدنيا أحوال. وكل ما في الجبين تراه العين.

- ألم يصبه مكروه؟

- بالعكس. يا سيدي عبد القادر ابن عمك كان لا يقرأ ولا يكتب.

- نعم.

- عندما اندلعت الحرب، كان عبد القادر مسؤولا في حينا، يجمع الاشتراكات والأسلحة والأدوية وما شابه، بعد سنة ألقي علينا القبض. أنا وهو. من هنا إلى هناك، من سجن لسجن، ومن مركز لمركز، حتى استقر بنا المقام في محتشد البرواقية. بينما كنت أنا، ألعب "الضامة"، وأخيط

كتاب المنفيين، كان هو يتعلم. صار يقرأ وصار يكتب، وصار يحفظ الكتب والكلام المرصع. وبعد الاستقلال. تصور بعد الاستقلال ماذا سيكون مصير عبد القادر ابن عمك؟

تردد الشيخ عبد المجيد بوالارواح، وحيره السؤال. إنه بقدر ما يثير حقدي وكراهيتي بقدر ما يدفعني إلى الاعتزاز، أن يقرأ عبد القادر، فكلام فارغ، أما أن يعامله الناس كمتعلم فشيء آخر، سجين ومتعلم، لعله وزير، أو سفير أو وال، أو نائب وال، أبسط شيء، لعله في قسمة من قسمات الحزب.

- يا سيدي بن سيدي. عبد القادر بن عمك، أستاذ. أستاذ في ثانوية.

- أستاذ ؟؟ ماذا؟ هكذا بهذه السهولة؟

- لا. ليس بسهولة. عبد القادر بن عمك، بدأ ممرنا، عبد القادر ابن عمك حصل على الشهادة الابتدائية، ثم على الأهلية. عبد القادر ابن عمك لم

ينقطع عن الكفاح. دخل الجامعة وتخرج. عبد القادر ابن عمك أستاذ في ثانوية. وهو يزورني من حين لآخر، وابنتي تتعلم عنده. سي عبد القادر ابن عمك متزوج وله أطفال. هذه الحرب وما تفعل يا سيدي بن سيدي، وهذه الحرية وما تفعل.

تذاوبت المادة السائلة فجأة في داخله. شعر بالثقل يشده إلى الأرض وبالانتفاخ في قلبه، يقطع أنفاسه، وبمطارق ضخمة تهوي على جمجمته. سال العرق من كامل بدنه. اصفر وجهه. إزرورق، إخضر. تنهد من أعماقه.

- لا بأس؟

سأله البرادعي، فأومأ برأسه وبإصبع يده أن لا شيء ذو بال. دوخة عابرة تراودني منذ الصباح. الحر شديد، وهواء المدينة ملوث، والحركة مضطربة.

- سي عبد القادر ابن عمك يسكن في عمارات الأساتذة بسيدي مبروك. تسأل عنه هناك، الجميع يعرفونه.

- أشكرك. أريد أن أعود إلى المدينة. من أين أركب الناقلة؟

- تنحدر أمام المصحة، تحت مدرسة عقبة بن نافع، حتى آخر النهج تقريبا. عندما يقابلك جسر مجاز الغنم، تجد موقف الحافلة، إن فاتتك، اصبر بعض الشيء.

كانت الرحى تدور، والحمار الوحيد الواقف قربها ينهر الذباب بذنبه، وباعة الأثاث القديم يهتفون دونما موجب بأسعار بضائعهم، بعض عجائز يفتلان الكسكسي في مخازن ضيقة، نجار يسمر قطعا، وآخر يدير آلته العصرية. حلاق تحت ظل شجرة، يضع محجمتين في قفا شيخ هزيل البنية. الغناء ينبعث من مخزن مغلق مع دخان التبغ:

" الكلام المرصع فقد المذاق. والحرف البراق ضيع الحدة".

عبد القادر الغرابلي. عبد القادر الذي ضيع أرض أبيه أستاذ في ثانوية. ويسكن في عمارات الأساتذة. هذا تحد صارخ لي. هذا تطاول .. يوم يتطاول الحفاة العراة رعاة الشاة في البنيان، ويوم تلد الأمة ربتها. تقوم الساعة، يعتري الدنيا شيء عظيم، فتذهل المرضعة عما أرضعت وتضع ذات الحمل حملها ويسكر الناس بدون سكر.. الزلزال الحقيقي إحساس يتقدم أو يتأخر أو يكون في حينه. الدفع القوي يحرك الوحل والحصى والرمل في قاع النهر.

يا سيدي راشد، يا صاحب البرهان، لعل، هذا برهان من براهينك، لعلك استجبت قبل يوم لدعوة داع، فقلت فيها كلمتك. لكن هذا عقاب للجميع يا سيدي راشد، لمن صعد، ولمن نزل، ومن ظل في مكانه.

أن يحدث الزلزال أخف وأهون من أن يحدث الإحساس بالزلزال.

مسكين بالباي، مسكين نينو، مسكين الطاهر بوالارواح، مسكين عبد القادر. مسكين أنا.

الملاعين. رجال السلطة. لا يريدون أرضنا، إنما يريدون أرواحنا، يريدون أن نقع في الهلع والجزع، إنهم يتصرفون مدفوعين برغبات كل هؤلاء الأشرار من الفقراء والتعساء، مدفوعين بلؤم العالم الذي انبثقوا منه. أنا وقعت في فخهم. بدأت أحس بكلكلهم قبل أن ينزل على صدري، ملاعين إرهابيون. مجرمون.

لا. مساكين. بل ملاعين.

قوي ثقل الشيء في ذاته، وبرز اللون الداكن إلى عينيه. فلم يعد يبصر أين يتجه، ولا يدري سبب وجوده. الدوار يحرك كيانه والأرض من تحته.

استند إلى سور الشارع قبالة المدرسة. وضع يدا على جبهته، ويدا على قلبه، وراح يتنفس في بطء. فتح عينيه وراح يتثبت من المرئيات قبالته: جسر سيدي راشد يشكل هلالا، ينطلق من صدر المدينة، بأقواس ضيقة مضاعفة، وعندما يبلغ ضريح سيدي راشد يفجّج على كامل الوادي في

شموخ واعتداد، تحت قدميه، تبدوالمباني ألوانا زاهية ولا غير، وتبدو حافتا الأخدود العظيم، كأنما في صراع معه، تحاولان أن تلتئما ويأبى هو. الأخدود يبدأ كبيرا، في الأعلى ثم يروح يضيق. الماء الداكن يلمع في الأسفل، وفوقه بقليل جسر صغير يعج بالحركة، ممر سكان حي "جنان التشنية" الذي يبدو وكأنه جزء من حي باردو، فصلته الأقدار عنه، لسبب من الأسباب، الحي يمتد مع السفح من أسفل الوادي حتى مشارف هضبة سيدي مبروك، ثم يولي أعقابه متعجلا الانحدار نحو الوادي. تنقطع الأكواخ والمباني فجأة، لتنهض بدلها رواب عارية، ثم حي "روماني" الملتف حول نفسه في خجل، حتى جسر مجاز الغنم. الجسر يمتد في تواضع على طول عشرين مترا تقريبا، لكن الأهم أن واضعيه، فكروا في أنه وقتي ولا شك، فلم يجعلوا له أية قاعدة إلى جانب متكأيه على حافتي الوادي. هذا أصدق الجسور على الإطلاق. انه يومئ إلى إحساس القسنطينيين الدائم بأنهم محكوم عليهم بفناء عاجل، وبأن عليهم أن ينهبوا الحياة نهبا، طيلة الدقائق المتبقية لهم.

مع كامل الوادي المنساب بالدكنة، الأطفال يستحمون والنساء ينهمكن في غسل الصوف والأكياس والثياب، وجلود ودواوير العنز.

حين يقبل سيدي راشد وعدتي، ويستجيب لدعوتي، مختارا الحل الثاني، يلتئم الأخدود العظيم. وينسد مجرى الوادي. يقوم سد مأرب. يتجمع الماء ويتجمع، ويصعد ويصعد. تهوي الأشجار وتتذاوب المباني الطينية. تفتك الأكواخ. يمتلئ الجرف، ويحدث الطوفان:

- "رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ".

توقفت الناقلة، قذف الشيخ عبد المجيد بوالارواح نفسه فيها، أخرج قطعة نقدية وتمتم:

- باب القنطرة.

استلقى على مقعد. ضم رأسه براحتي يديه. أغمض عينيه. تمنى لو يتمدد، أو حتى لو أنه لا يسمع هذه الأصوات المثرثرة حوله:

- سيبنون عمارات كبرى في قسنطينة.

- مؤسسة العمارات الجاهزة التي أسسوها هنا، ستمد كامل الوطن بالعمارات.

- الجزائر تتقدم.

- فرنسا لا تزال تضع العراقيل في طريق تقدمنا.

- إيه. من لم يشبع من القصعة لا يشبع من لحسها

- في الفيتنام أمريكا اندحرت كما يجب.

- الفيتنام يتلقى كل يوم قطارات أسلحة من الاتحاد السوفياتي.

- لست أدري ما الفرق بين إسرائيل وبين كثير من الدول العربية. إسرائيل رأسمالية. معظم الدول العربية رأسمالية. إسرائيل عميلة للأمريكيين، معظم الحكام العرب عملاء للأمريكان. إسرائيل تقتل الفلسطينيين، معظم الحكومات العربية ضد الفلسطينيين.

- والله عندك الحق. العداء هكذا لله في سبيل الله غير معقول.

- إسرائيل ليست كل مشاكل العرب، فلسطين ليست القضية الأولى إطلاقا.

- قلت لها اهربي عنه، قالت إنه سيتألم كثيرا. أنا لم أفهمها. تكرهه وتحبه. تحبني ولا تريد الهروب معي.

- دعك منها إنها فاجرة تعبث، تستغل شبابك وفتوتك. ستخونك كما خانته.

- ذات يوم دخل علينا ونحن في الفراش. قال لا حول ولا قوة إلا بالله. نهضت إليه عاريا. أسندته إلى الجدار ورحت أضغط على عنقه، متسائلا، ألم يعجبك الحال، لم لا تطلقها؟ أتدري ماذا فعلت؟

- ماذا؟

- حملت ساطورا وهاجمتني مزمجرة. دعه. أطلق خناقه وإلا فججت رأسك.

- أمام المحقق قالت إنه أبوها. طلب منها أن تمسد له ظهره، ثم أرقدها واحتضنها. وأمام المحكمة قالت إنه أخوها. وإنها هي التي أغوته. ثم عادت فأنكرت، أن يكون أباها أو أخاها. قالت ربما أحدهما. كانت الظلمة. كنت نائمة عندما استيقظت وجدت أن الشيء وقع. لعله أبي. ولعله أخي، ولعله ابن جيراننا.

- وماذا فعل القاضي ؟.

- أصدر الحكم بالسجن عليهم جميعا. الأب والابن وابن الجار. والفتاة.

- كان في الصف. قارورة الزيت في يده. الصف طويل، ومع ذلك لم يكن في المؤخرة. انتظر أن يتقدم من أمامه، لكن بقي الجميع في موضعهم.

- ماذا؟ هل أوقفوا البيع؟

- لا. انتظر. كانت هناك دورية تحفظ النظام.

- عسكرية أم مدنية؟

- عسكر أو شرطة، الأمر سيان.

- لا. العسكر عسكر والشرطة شرطة.

- لا يهم. قسنطينة هذه حالها منذ كانت. قلت لك. التفت فإذا بقائد الدورية يقوم مقام البائع. يملأ صفيحة هذا الصديق أو أحد المعارف. ويمد هذه الفتاة أو تلك المرأة بمطالبها. كان الناس ينظرون إلى بعضهم مشدوهين حائرين، أشاروا إلى بعضهم

بعبارات ذات مغزى. لكن أخونا، قائد الدورية لم يرعو. بل راح أحد أتباعه يعينه في مهمته. لم يجرؤ أحد على الكلام. غير أن ابني رفع صوته بهذه الكلمة: يا له من منكر.

التفت أحدهم إليه وسأله:

- ماذا تقول؟

- لا شيء.

أجابه ابني، غير أن أحد أعضاء الدورية قال إنه يحتج. سأله قائد الدورية مرة أخرى:

- ماذا تقول؟

ضاق صدر ابني، فقال له: أنتم هنا لتحفظوا النظام، أربع ساعات ونحن في الصف تحت الشمس المحرقة ولم نتقدم خطوة. سحبه أحدهم من قميصه بيد ولكمه بأخرى على أنفه. سال دمه. أشبعوه ضربا ثم حملوه معهم في السيارة، هذان شهران لم نره، ولم نعثر له على أثر.

- يا له من منكر.

- لم نجد ما نقوله. السكوت أفضل.

توقفت الناقلة أمام مقهى النجمة، نهض الشيخ عبد المجيد بوالارواح ووثب إلى الأرض متمتا:

- أصلي العصر قبل أن يفوتني. أتوضأ في حمام المصعد وأصلي هناك، ثم ألتحق برحبة الصوف لأرى مصير البرادعي. لم أعد أشعر بالحاجة إليهم، بقدر ما أشعر بالرغبة في معرفة مآلهم. الاتكال، على سيدي راشد، وعلى الطاهر بوالارواح ابن أخي.

5- جسر المصعد

الغرب عندما سحقنا عسكريا، راح يبهرنا علميا وتكنولوجيا.

الصخرة المتآكلة.. ظللنا عشرات القرون نتفرج عليها في خوف كبير وإعجاب شديد.

- الغرب عندما جاء خربها بالكهوف والأنفاق، وخاطها بالجسور. تفنن بالإسمنت في باب القنطرة وسيدي مسيد وسيدي راشد، ثم كأنما لم يكفه ذلك لإظهار براعته، راح يفتل حبالا من الفولاذ، ويبني بالحديد، ويعلق في الفضاء.

يا ناس الجرف الكبير الذي ما تنفكون تخافونه وتتعجبون منه، قهرناه. مروا فوقه من حيث شئتم، راجلين أو راكبين.

ولو يعود اليوم، الغرب بشكل أو بآخر، يفعل فيه أكثر مما فعل.

عله يملأه بالرصاص، حتى لا يخشى جانبه إطلاقا، وإن تحركت الأرض كلها وليس الصخرة فقط. لعله يحفر في الأسفل، ويرفع الصخرة على عماد ألف متر أخرى، بل، قد يعلقها في سلسلة مثلما عاق هذه الجسور، ويبني تحتها مدينة أخرى... قد يربطها بمغناطيس كوكب من الكواكب، ويتركها بين الأرض والسماء. جرما سابحا.

ونحن ماذا نفعل؟

نحتشد فوقها. الصخرة المتذاوبة. نكدس الزيت والسكر والصابون والقهوة والدقيق، ونلد ونلد، ونبيع مالا يباع، ونشتري ما لا يشترى. نسرق بعضنا في الليل، ونبيع لبعضنا في الصباح. نلعب الدومينو ونصلي ونؤذن ونبني المساجد، ونغني ونطبل ونزمر.

عميق. عميق، الأخدود.

في قراره يجري الماء داكنا يتخلل الصخور والطحالب، وتحوم حمامات حزينة.

حيثما ينظر المرء، تقابله زاوية حادة، رأسها في أسفل سافلين، وضلعاها يصعدان مع البصر في انفراج حتى يجتازاه دون أن يتصلا بالضلع الثالث.

عميق. عميق الأخدود.

من قريش من ينتهي عند إبراهيم الخليل، وإبراهيم الخليل لا ينتهي إلى أحد، ومن العرب من ينتهي إلى جرهم أو قحطان أو عدي.

وهم كلهم: في اليمن أو في حضرموت أو في الحيرة أو في نجد، أو في تهامة أو في الحجاز، ينتهون إلى مستعربة، ثم إلى عاربة، ثم إلى بائدة.

عميق. عميق الأخدود.

نحن هنا، عرب لا ننتهي إلى عرب، وبربر لا ننتهي إلى بربر، وفنيقيون لا ننتهي إلى فنيقيين. وبيزنطيون لا ننتهي إلى بيزنطيين.

عميق. عميق الأخدود.

بايعنا أبا بكر في السقيفة ثم رحنا نهمس في آذان عليّ والأنصار.

بايعنا عمرا وقتلنا عمرا.

نصبنا عثمان وقتلنا عثمان.

بايعنا عليا مليون مرة وقتلناه مليون مرة.

نمدح معاوية ونذمه.

نقيم المذاهب ونحطمها.

ننطلق من السنة، وننتهي إلى البدعة.

في قراره يجري الماء داكنا، يتخلل الصخور والطحالب، وتحوم حمامات حزينة.

عرب في مصر، وفراعنة في مصر. عرب في الشام والعراق وفنيقيون وبابليون وحثيون، وأكراد ودروز. نثقل الصخرة ولا غير، ونفقدها توازنها.

الأدهى هو الإحساس بالزلزال المتواصل في نفوسنا دون أن نبدي حراكا. نتفرج عليها في خوف كبير وفي إعجاب شديد.

- أستغفر الله العظيم. أستغفر الله العظيم.

تمتم الشيخ بوالارواح، وهو يشعر باليأس يطغى على قلبه، عندما اتكأ على السور قرب المصعد، وتأمل الجسر والأخدود الذي تحته.

بعض ومضات تلمع في ذهني هذا المساء، تنذر بعاصفة عنيفة. أستغفر الله العظيم. أتوضأ وأصلي العصر، وأتصل بالرزقي البرادعي، هنا قريبا في رحبة الصوف. ثم أغادر المدينة. لن أبيت فيها.

أضاف في سره، إلا أنه بدل أن يغادر مكانه، ظل يحملق في الجسر والأخدود.

جدي يحكي:

- أبي كان عظيما. رئيس قبيلته وزعيم قومه. عندما كان الفرنسيون يدقون بمطارق من حديد، أبواب منطقتنا. كانت قبيلتنا تقاتل ببسالة. ترد الغزو من البحر، وتصد الهجوم من البر، كانت قبيلتنا محصنة. منطقتنا منيعة، ومكافحونا بواسل.

أرسلوا إلى أبي خفية: نعطيك الأرض. نتركك زعيما في قبيلتك. افتح لنا الباب. ولك الأمان أنت وأفراد أسرتك.

قال أبي لمكافحي القبيلة: بدل أن ندافع نهجم. لكن إياكم أن تبدءوا بالضرب قبل أن أعطيكم الإشارة. أرسل أبي إلى الفرنسيين يعلنهم: أعطيكم المكافحين وأعطوني الباقي.

خرج أبي برجاله وعندما وجدوا أنفسهم في الكمين قال لهم أبي: " لا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة ".

سلموا والله ولي الأمر من قبل ومن بعد.

فتح أبي الباب.

دخل الفرنسيون المنطقة. قتلوا كل قادر على حمل السلاح، وحبلوا النساء، وعلقوا لأبي النياشين. وأعلنوه زعيما. وأعطوه أرضا كبيرة. كل الأرض.

أبي يحكي:

- جدك كان عظيما. ورث عن أبيه النياشين والزعامة والأرض. وضعت النساء أحمالهن، وامتلأت المنطقة بالرجال القادرين على حمل السلاح من جديد. قرر الفرنسيون أن يجندوهم ليغزوا بهم المغرب وتونس. تمردوا وهربوا إلى الجبال. سلح جدك جيشا وغزاهم. مات من مات، وسلم من سلم، وهاجر إلى المشرق من هاجر.

ازدادت النياشين في صدر جدك، وازدادت مرتبته، وارتفع رأسه. بيد أن الأرض اقتسمها معه المعمرون.

أبي لم يبلغ عظمة أبيه وجده. لكن كان عظيما. حافظ على أرض أبيه، وعلى بعض النياشين في صدره، وعندما عاد من حرب الشام، ألبسوه برنسا أحمر، ونصبوه " قايدا "، وبقي الوحيد الذي يملك أرضا وسط المعمرين.

- يا بني. عائلة بوالارواح عظيمة. عظيمة بالجاه والمال، لكن بقيت فيها خدشة: لقد نقصها العلم. التفقه في الدين واللغة وغير ذلك.

العلم مع المال والجاه تاج على الرأس يا بني.

ارتفع مجد أسرتنا حتى بلغ الثريا، لكن لم يكن فينا ملك بالمعنى الحقيقي، فاذهب إلى تونس، وعد بالتاج.

عد ملكا وسأضمن لك منصب قاض في قسنطينة.

أرى أن الذين تعمقوا في العلوم الفرنسية، لم يتميزوا بشيء، فمهما كان أمرهم فإنهم لن يكونوا خيرا من الفرنسيين.

إن عدت بعلم يجهله بنو قومك، ويخضعون له، ويحتاج إليه الفرنسيون، للتحكم أكثر، يكن لك شأن وأي شأن.

أخوك الكبير، يذهب إلى الجيش، وأنت تذهب إلى جامع الزيتونة.

تزوجت قبل أن أذهب إلى تونس. كنت في الخامسة عشرة، وكانت في التاسعة، حضر الفرسان من جميع الأماكن، حضر المغنون والقصابون، ذبحت الذبائح، أقيمت الولائم. ألبسوني برنسا حريريا، وحذاءا لماعا، وقادوني في الليل إليها.

عندما أفهموني، دوري، رفضت البقاء معهم. رحت أبكي، بكت بدورها، ارتفع صياحنا، سمع أبي، فدخل إلينا بالخيزران. ضربنا معا. وأجبرنا على النوم معا، وزغردت النساء.

بعد أسبوع قال لي أبي: هيا.

كانت الحقائب معدة. بتنا ليلة في قسنطينة وليلة في سوق أهراس، أودعني إلى معارف وعاد.

عندما رجعت في الصيف وجدت عائشة زوجتي غير موجودة.

قالوا ماتت.

بكيتها كثيرا. لم أتعلق بها كزوجة، لم أكن أفقه كثيرا معنى الزوجة والزوجية إنما بكيتها كثيرا. كانت تنام إلى جنبي، وتغطيني، وتلاعبني، وتبكي والديها.

قالوا ماتت.

زوجة أبي الصغرى، قالت كلاما فظيعا.

أبوك قتلها. خنق أنفاسها.

ترك زوجاته الأربع، وطلبها لغسل قدميه.

أغلق الباب خلفها، وانفرد بها.

في صباح الغد، وجدناها ميتة... وجدنا الدم في قميصها.

كان عنقها أزرق. كان وجهها أزرق. كانت آثار الأصابع في عنقها.

بكينا ودفناها دون أن نغسلها .. أبوك، قال، صغيرة ولم ترتكب إثما.

زوجة أبي الصغرى كانت في السادسة عشرة. راودتني عن نفسها، مانعت ومانعت، ثم انسقت معها.

بلغتنا أخبار موت أخي الأكبر. لم أحزن. زوجة أخي أيضا ماتت نفس موتة عائشة.

مرت السنوات سريعة. لم أشعر بها رغم المعاناة الشاقة التي كنت أعانيها في تونس. تخرجت وعدت.

كان أبي، يلبسني جبة بيضاء، وشاشية تونسية عليها عمامة حريرية، ويأتي بي إلى قسنطينة. نركب " كاليشا " بحصان أبيض، ونروح نطوف، ثم نأتي المقهى الوسطي في الساحة الكبرى، ونجلس متقابلين.

كان يقول:

أن نكون جزائريين عظماء، خير من أن نكون فرنسيين عاديين.

كان أبي شديد الحساسية لجزائريته، مع أنه كان لا يرى باقي الجزائريين، إلا خدما وعبيدا، وأحجار واد لا تصلح إلا أن نمر فوقها.

يوم قامت الحرب بين المسلمين واليهود، لعب أبي دورا بطوليا كبيرا، هجم على المعمر اليهودي جاره، شد وثاقه بالحبال، ومنع الخماسة من قتله. أخرج كل ما في منزله من أثاث، ربط الدراس في الخيول والأبقار، وراح يجره إلى خيمته.

قال للخماسة:

- سينقص عنكم العمل. ولكن ستصيرون سباعة.
أربعة أسهام لي، كالعادة، وسهمان لصاحبنا هذا، الدراس، وسهم لكم.

لم يعلق أحد على قراره، فهم يعرفون جميعا، أن الخبزة لن تعدم في ظله.

في المساء، حضر الجندرمة، ومعهم حشد من اليهود، مسلحون جميعهم.

طوّقوا المنزل، وطلبوا من أبي أن يستسلم لهم. امتنع أبي عن الاستسلام. كان يعرف أن مصيره الموت.

قال للجندرمة: ابعدوا اليهود وسأستسلم لكم. أبي، الآغا بوالارواح، وجدي الباش آغا بوالارواح، جدي فتح الباب لفرنسا، وأبي أخضع العباد لفرنسا، وأنا حاربت في المغرب وفي الشام، في حلب وحمص وطرطوس. كلنا نحمل وسام الشرف.

أبعدوا اليهود وسأسلم نفسي. القانون قانوني، وأنا جزء من السلطة .. الخصومة بيننا وبين اليهود، وليست بيننا وبين الفرنسيين.

لم ينفصل الهود عن الجندرمة، وظلت الطلقات النارية تنبعث من هنا وهناك. وعندما ادلهمت الظلمة، ركب جوادا أدهم، وتسلل.

تدخلت جماعة بالباي وبن جلول، ومامي اسماعيل. اضطر أبي إلى بيع جميع أنعامه، ليدفع الرشى والجعالات.

سامحوه. راعوا ماضيه وماضي أبيه وجده .. لكن بعد ثلاثة أشهر عثر عليه في قسنطينة ميتا.

أثخنوا جسده بالجراح، وقذفوا به إلى قعر الوادي. رموه من فوق الجسر.

بعد ثلاثة أشهر، ماتت حنيفة زوجة أبي الصغرى نفس ميتة عائشة وزوجة أخي.

كانت تتصرف كما لو كانت زوجتي، تخدمني، وتدافع عني، وتخجل مني، وتصادفني في كل ركن من المنزل.

كانت أمي تسكت، وإذا علقت بشيء، تقول، كم وددت لو أنجبت لك أختا، لكن ها هو الله يعوضك عنها بحنيفة المسكينة.

دارنا الآمال فيها أكثر من الرجال.

نساء أبيك الأخريات، يلدن ويموت أطفالهن في المهد، وأنا توقفت بعدك مباشرة.

أبوك رحمه الله هجرنا في الأخير نحن الأربعة، وتزوج بيهودية في قسنطينة. حنيفة مسكينة، صغيرة، وصبرها محدود.

زوجة أبي الثانية، كانت تقول عني: رأس البومة. وجه النحس، منذ برز إلى الحياة برزت معه الآلام. كل مولود في البيت يموت. كل زوجة يتزوج عليها. أكل رأس زوجته، ورأس زوجة أخيه، ثم ها هو يأكل رأس أبيه. سيأكل رأس كل من في البيت. ويبقى وحده "كالتبيب لا جار ولا حبيب". خراب بيت بوالارواح سيكون على يده.

زوجة أبي الثالثة، كانت تلعب دور الحماة، تغضب كلما غضبت حنيفة، وتلاطفني كلما غضبت عليها، وتغسلها، وتعطرها، وكلما قابلتني لا تحدثني إلا عنها.

ذات ليلة طرقت أمي باب الغرفة. نهضت حنيفة في ثوب النوم وفتحت لها الباب. استعاذت وقالت يا ربي لطفك أكبر. رحمتك أوسع. قولي له هناك من يسأل عنه.

عادت لتخبرني. حدقت فيها. امتلأ قلبي بالمادة السائلة!. صعد السائل حتى عيني. اتقدت النيران في فمي، ازداد ذوبان السائل.

بانت لي عائشة بعنقها الأزرق، وآثار الأصابع عليه. بانت لي زوجة أخي.

لم أعد أرى شيئا، فاض السائل وداهمني من الخارج أيضا.

ارتمت عليها. انبهرت. استسلمت. ازرورق وجهها، ارتسمت آثار أصابعي في عنقها.

دفناها .. بعد سبعة أيام ماتت أمي .. بعد سبعة أيام أخرى هربت زوجة أبي الثانية. بعد سبعة أيام أخرى، دفنت زوجة أبي الثالثة.

هجرت الريف إلى قسنطينة. انخرطت في العمل مع الإصلاحيين.

زوجتي الثانية. ألحت وألحت أن أمنحها ولدا. ألحت أمها وكل أفراد أسرتها. صبرت العام الأول. صبرت العام الثاني. صبرت العام الثالث والرابع.

في مطلع الخامس. قالت أن شيئا يتحرك في بطنها. فرحت كثيرا. إلا أنها بعد أسبوع اختفت. انقطع أثرها سنوات. ثم بلغني أنها في فرنسا مع ابن عمها وولد ابنها الحقيقي.

عدت إلى الريف.

لفتت انتباهي زوجة خماس، جميلة. أدخلتها الحوش هي وابنتها وأغلقت عليهما.

حام الزوج أياما، ثم جاءني ذات مساء:

- مساء الخير سيدي الشيخ.

- يمسيك ويهنيك؟.

- أريد أن أقول لك.

- ماذا تريد أن تقول؟ هل أنت جائع؟

- لا.

- هل أنت محتاج؟

- لا.

- هل أنت مظلوم ؟؟.

- لا.

- ماذا إذن ؟؟ ماذا تريد أن تقول؟

- أريد أن أقول، إن الناس ...

- ما بهم الناس ؟.

- يتحدثون .
- وهل في وسعي أن أمنع أحدا عن الحديث؟
- أقصد.
- ماذا تقصد؟ هيا اغرب عن وجهي.

انصرف متثاقلا. وقبل أن ينعطف مع جدار الإسطبل، التفت وظل يحدق في لحظات، حام حولي أياما مطأطئ الرأس، ثم اقترب مني.

- مساء الخير سيدي الشيخ.
- آهاه. عدت؟ هذا أنت ؟!
- نعم أنا.
- ماذا تريد؟
- الناس يتحدثون.
- وماذا يقولون؟
- يقولون إنني ديوث.

- وما يضيرك؟

- في الحقيقة يا سيدي الشيخ أنني خجلت منك. جدي خدم جدك، وأبي خدم أباك وأخدمك، كانت المرحومة أمك تعطف عليّ، وهي التي زوجتني.

- اختر بين أمرين. إما أن ترحل إلى فرنسا، وما أن أرسلك إلى " كيان"

- خذ البنت، وأعد لي أمها.

- إما أن تسافر إلى فرنسا، أو إلى المنفى.

- أمرك يا سيدي الشيخ.

في اليوم التالي وسقته في باخرة إلى مرسيليا.

انتظرت أن تحبل زوجة الخماس.

انتظرت هي أيضا.

مرت أشهر. ذات ليلة طرقت ابنتها الباب، حدثتها في أمر ثم ولت.

التهبت النار حولي. ذاب السائل في صدري .. برز السائل إلى الخارج وغمرني. تراءت لي عائشة. تراءت لي زوج أخي. تراءت لي حنيفة. زاغ بصري. غمرتني الظلمة.

في الصباح وجدتها مزرورقة وفي عنقها آثار أصابع. دفناها.

عدت إلى قسنطينة ومعي البنت، كانت في سن عائشة. قرأت الفاتحة، ورحت أجس بطنها. كلما قالت إنها مريضة سارعت إلى بطنها.

مر العام الأول. مر العام الثاني. كبرت البنت، وصارت تعرف لماذا أجس بطنها، بدأت تتغيب عن المنزل وتسألني متى أسافر.

قلت لها إنني سأسافر غدا. لمعت فرحة في عينيها.

في الغد حملت حقيبتي وخرجت. طفت في المدينة ساعات ثم عدت إلى المنزل.

تفاجأت بعودتي. احمر وجهها واصفر. اضطربت شفتاها، وارتعدت ركبتاها. رحت أدقق النظر فيها وراحت تخفض بصرها، ثم أجهشت:

- ماذا فعلت ؟.

- لا شيء.

- ماذا كنت تنوين أن تفعلي؟

رفعت ذقنها، قائلا:

- حدقي فيّ. ارفعي بصرك إليّ.

رفعت بصرها ثم غضته، بانت جميلة. راقت لي الحمرة على خديها. عيناها مكتحلتان، شفتاها قرمزيتان. جذبتها من ذقنها. انقادت. انحنيت وطبعت قبلة على شفتيها، ثم طوقتها ورحت أعتصرها.

أريد أن أمنحكه. أعلم أنك في انتظاره بفارغ صبر. من أجلك، من أجلك. لم أفعل شيئا حتى الآن.

ظلت تردد والدمع ينهمر من عينيها الجميلتين، حتى عندما كنا في طريقنا إلى البادية.

بعد أسبوع دفنتها وعدت.

أقسمت أن لا أتزوج مرة أخرى، غير أني لسبب ما، وجدتني بعد سبعة أشهر، ارهب الوحدة.

في الليل، كان اللون الداكن يتسرب إلى قلبي.

كان في صدري منجم من مادة سائلة، تذوب كلما شعرت بالحرارة. يفيض السائل، ويغمرني. أوقد النور فلا أبصر شيئا. أتلمس فلا أعثر على شيء.

خدمي يقولون إنني أهتف في الليل، عائشة، وأنا لا أذكر سوى أنني امتلئ بالدكن، ثم أغلي، ثم أفيض بالمادة السائلة، ثم أنغمر. ثم أعمى، ثم أروح أتلمس بأصابعي.

فكرت أن أتزوج سبع نساء دفعة واحدة، كل واحدة بخادم.

فكرت أن أتزوج عشرين امرأة، وان أزوج كل واحدة بسبعة رجال.

فكرت أن أشتري مائة طفل.

فكرت أن أتحول إلى امرأة، وأن أتزوج مليون رجل وألد مليون طفل.

فكرت أن أحفر جبا كبيرا، عميقا كنهر الرمال، وأن أقذف فيه بألف امرأة، وألف طفل، بألف أب وألف أم، وبأودية من الحليب.

فكرت في كل ذلك، ولم أفعل منه شيئا. إنما تزوجت امرأتين في آن واحد. كنت أقول عنهما في قلبي أحيانا: هذه السلطة وهذه الفقه. وأحيانا، هذه العروبة وهذه البربرية وأحيانا، هذا الإسلام، وهذه النصرانية.

كلما رأيتهما، فكرت في ضدين. وشعرت أنني أقوى. بأنني ملك. على رأسي تاج كما يقول أبي ...

أضربهما معا. وأقبلهما معا، وأضاجعهما معا في وقت واحد، وأسألهما معا، متى تحبلان؟

ذات صباح نهضت ولم أجدهما. بعد أيام تلقيت على يد القاضي طلبين في فك العصمة.

عدت إلى الوحدة. الأرض في يدي. الفقه والنحو والصرف في رأسي. أصعد جبلا لا ينتهي، وأنزل منحدرا لا يحد. صاعد. نازل. وكلما راجعت موقعي، وجدتني في موضع واحد. أهرم وأهرم. كصخرة قسنطينة. أمتلئ وأهرم، والأخدود يغمق من حولي بفعل الماء الداكن.

تعرفت على يهودية. قالت أنا عاقر وأنت عاقر. نتزوج ونتبنى ولدا.

تزوجنا.

خدمتني كما يجب. أحسنت خدمتي ورعايتي، طورت حياتي وطريقة معاشي. سافرنا إلى فرنسا، كانت غنية،

وكانت تنفق من مالها. الحق كانت زوجة مثالية. كنت في منتهى السعادة معها، على الأقل في منتهى الرضا.

يوم قررنا أن نتبنى اختلفنا.

- نتبناه يهوديا.

- لا. نتبناه مسلما.

- يهودي. أنا أيضا بمالي.

- مسلم. أنا ومالي خير منك ومن مالك.

- نتبنى اثنين. مسلمة ويهودي.

- لا. مسلم ويهودية.

- مسلم ويهودي.

- لا يمكن أن يكون معي في البيت يهودي.

- أنت متعصب.

- أنتِ متعصبة.

- لا. أنت.

صفعتها. صفعتني وخرجت. غادرت المنزل وطلقتني. كنت مجنونا. كانت مجنونة. ثارت فيّ نعرة لا داعي لها. خسرت بخسرانها، ثروة، وتجربة.

آسف عنك يا سارة.

أبكيك يا سارة.

أبكي الولد الذي لم تدخلي منزلي، يهوديا كان أو نصرانيا أو مسلما.

أبكيكما معا.

أبكيكما من كل قلبي.

أنا وأنتِ يا سارة ما كان يجوز لنا أن نتخاصم أبدا، جمعنا المال، وجمعنا العقم، ووحد بيننا الحرمان. فلماذا يا سارة اختلفنا فيه، وما كان يهمنا أن يكون متدينا بدين من الأديان أو وثنيا.

كنت حمقاء، وكنت أشد حمقا منك، ولم يكن مولانا عادلا.

أيا ما كان، فنحن يا سارة، مفترقين أو مجتمعين، متحدا الروح. زوجان، ولو تقع بيننا آلاف الأميال.

توحد بيننا الرغبة في ذلك الطفل الذي لم نلده. لم يلده أي منا.

لم تطل وحدتي. لم أطقها. صار من الصعب أن أتزوج فتاة صغيرة أو حتى ببكر. لم يبقى أمامي إلا الثيبات.

أنا بدوري صرت أهرب منها. عائشة، زوجتي التي لم أتزوجها. وأختي التي لم أرضع معها وابنتي التي لم أنجبها.

في رحلة إلى بسكرة، اتصلت بها. كانت ورثت تركة في سيدي عقبة. تزوجنا. ضممنا التركة إلى بعضها، بما فيها روحانا المعذبتان.

كانت بدورها تشعر بالدكنة في أعماقها. يصيبها الصرع كل ميلاد هلال. تبدأ بالنحيب، ثم بالنواح، ثم بالندب، تمزق

خديها، ثم ثوبها، تعري صدرها وتسقط. يغمى عليها أربعين ساعة، ثم تستفيق متسائلة عما جرى.

انزعجت في الأول، ثم ألفتها، ثم صرت أنتظر صراعاتها.

كانت تندب عائشة، وحنيفة، وسارة، وأبي وأخي وزوجة أخي، وكل قلب فيه الدكنة.

بعد الصرع، تنام معي ليلة، ثم تهجرني. لا تقبلني ولا أقبلها إلا من عيد لعيد، ولا نتبادل الحديث إلا عن التركة، خاصة بعد أن طردت عمارا أخاها.

" لا يفت الحديد إلا الحديد ".

- ترى كم من طن حديد في هذا الجسر؟

تساءل شخص قربه، فالتفت مذعورا وراح يفحص موقعه.

- المهم في التكنيك الذي استعمل، لا في الكمية.

رد عليه صاحبه. تأملهما.. لحاهما كثة. شعورهما طويلة، عليهما سروالان أزرقان، ومريولان متقاربان في اللون والشكل، صدراهما منتصبان، عضلاتهما بارزة، بطناهما ضامرتان.

- طالبان ولا شك.

قال في نفسه، ثم التفت إلى الأخدود، ودون أن يدري راح يهمس:

- عميق عميق. الأخدود ..

في قراره ينساب في تثاقل ماء داكن، وتحوم حمامات حزينة. الصخرة واهية والرعاع يتكاثرون فوقها، ستضيق بهم إن آجلا أو عاجلا، وستستثقلهم اليوم أو غدا. إنهم يتفرجون عليه بإعجاب كبير، وهلع شديد.

يعيشون الزلزال دون أن يدروا.

ليس في وسعهم، أن يبنوا جسورا من هذا النوع، ولا أن يفتحوا أنفاقا وكهوفا، أو أن يرفعوها قليلا، فوق الصخرة، يضيفون إليها الثقل ولا غير.

لا يا سيدي راشد لا.

اختر الحل الأول: نار فتنة آكلة، وإلا، فوباء قاض، لم يخلق له دواء. يا سيدي راشد على هذه الصخرة سار جد أبي، وجدّي، وأبي، وسرت أنا.

في هذه الصخرة هزات قلوب آل بوالارواح، تارة بالفرح وتارة بالحزن، تارة بالتباهي وتارة بالانكسار.

فاحفظها. أحفظها ولو للذكرى يا سيدي راشد. لقد كانت قبلة آل بوالارواح.

- إذا لم تحصل المراجعة الدقيقة، على ضوء المعطيات العملية، وبروح ثورية لا تعرف التردد أو المساومة، فسيكون الانهيار الكبير.

- أنظر. أنظر، هذه عاصمة فلاحية. إنها الجزائر كلها. إنها إفريقيا كلها. إنها آسيا برمتها. إنها كل العالم المتخلف القائم على الفلاحة. يشتغل فيه الناس أربعين يوما في الصيف وأربعين يوما في الخريف، ويظلون باقي السنة يجولون.

- لابد من مراجعة عاجلة. عملية دقيقة وجزئية.

أصغى الشيخ بوالارواح، ثم التفت إلى مصدر الحديث .. طالب وطالبة على ما يبدو. الجامعة على بعد بضع خطوات من هنا.

كانا يتأملان الأخدود ويتحدثان بجدية. تأملهما لحظة، ثم ليس يدري كيف صاح بكل صوته:

- يا سيدي راشد يا صاحب البرهان. برهانك نار آكلة، أو وباء قاض أو حتى زلزال عظيم.

6- جسر الشياطين

- أدّعها في سوق العصر، وانزل على قدميّ حتى "رحبة الصوف"، أرى الرزقي ثم أنطلق. لن أبقى فيها لحظة أخرى.

قال الشيخ عبد المجيد بوالارواح، وهو يصعد بالسيارة على جسر الشياطين، مارا بحي اليهود، مع نهج طاطاش بلقاسم المدعو الزبير.

رغم أن النهج كان خاليا من السيارات، فإنه راح يقود ببطء ملحوظ.

من يدري. هنا دائما الأطفال يتراكضون. الحي ما زال بنفس الألوان تقريبا. أهاه. معهد عبد الحميد بن باديس حوّلوه إلى هنا. ومغسلة أموات اليهود ماذا تحولت يا ترى؟ ما شاء الله: التعليم الأصلي والشؤون الدينية.

معقول.

خاف لساف.

مباني اليهود في كل مكان من العالم واحدة. ذات طابع واحد. تتميز بالتقشف في الزخرفة، وبالتصاق ألواح النوافذ مع الجدار، ترى ما هو منطقهم، وما هي فلسفتهم، حتى يختاروا هذه الكيفية في وضع ألواح النوافذ. إنها واحدة، في الشرق وفي الغرب، في الصحاري وفي التلول. حتى لكأنما نزلت فيها آية، بالتوراة، أو صدرت فيها تعليمة من كبار أحبارهم. إذا لم يكن ذلك، فيقين أنها روح. ونزعة. روح ونزعة اليقظة وعدم الثقة في الشعوب التي ينزلون بها، والتلصص عليها.

عندما تنغلق نوافذ عمارة يسكنها اليهود، يخيم الحزن في الخارج، ويقوى الشعور بانغلاق العالم الذي تحويه.

حتى دولتهم، أقاموها على شكل هذه العمارات. ألواح نوافذها ملتصقة مع الجدران، يطلون على العالم ولا يطل العالم عليهم. يخرجون العرب، ولا يكفيهم ذلك، إنما يبعدونهم.

هذه ثانوية "أومال" سابقا. ما أبشع الخط الذي تحمله لافتتها، رضا حوحو، حتى اللون الذي صبغوها به قاتم، كأنه لون ثكنة أو سجن .. من هنا أيضا الخرب. البنيان قديم حتى هنا. موجود، قبل دخول الفرنسيين بزمن طويل على ما يبدو، إنه مبني بالآجر والطين وليس بالإسمنت. لعله من عهد الأتراك، لا. يبدو أنه أسبق، ابن خلدون الخبيث يقول إن مباني العجم أمتن وأبقى من مباني العرب، لان هؤلاء يختارون الوديان التي سرعان ما تفيض عليهم، أو تحمل إليهم الأوبئة، بينما العجم يبنون في المرتفعات، حيث صلابة الأرض ونقاء الهواء.

ابن خلدون الخبيث كان أديبا ولم يكن يسجل. كان يهضم ولم يكن يحفظ. كان صاحب بدع، ومع ذلك يدافع عن السنة، ويقف ضد المعتزلة والفلاسفة وأهل الرأي.

ابن خلدون كان حزبا سياسيا، وليس غير ذلك.

في الجزائر الحلول كاملة. إما وإما. من النقيض إلى النقيض، من الأقصى إلى الأقصى.

إما أن يحتل الفرنسيون الأرض احتلالا مباشرا استيطانيا، ويبقوا قرنا كاملا وقرابة القرن، وإما أن يغادروها جميعا. حتى من أيدهم أو أعلن عن انتمائه إليهم رحل معهم.

اليهود لم يتركوا خط رجعة لهم. انخدعوا في الجزائر على غير عهدهم.

انخدعوا حيث أغلقوا كل نافذة أمل.

احتقروا التاريخ في الحقيقة. خانهم الذكاء. ففي حين حافظوا على شخصيتهم في فرنسا، سلموا فيها في الجزائر،

وتقمصوا الشخصية الفرنسية، الشخصية الاستعمارية المتعجرفة.

يئسوا من أنفسهم، ويئسوا من الشعب الذي يحيط بهم، وانبهروا للقهر العدواني.

كانوا أسياد قسنطينة. يتحكمون في توجيه سكانها وكافة سكان الشرق بالتبعية. يقررون عدد الأسنان الذهبية التي تكون في فم الرجل، فيمتثل الناس. يقررون حجم كمية الذهب الذ تحمله العروس معها فينفذ قراراهم. حتى نوع القماش الذي يرتديه الناس في كل فصل أو موسم يعين من طرفهم، كانت تجارة كل شيء تخضع لمصالحهم، لكنهم مع ذلك، ظلوا خاضعين للمصلحة العليا للاستعمار.

لم يستطيعوا أن يكوّنوا حكما خاصا بهم عن مستقبل هذا الشعب. هم الذين ظلوا آلاف السنين، يرعون شعوبيتهم وقوميتهم.

فجأة وجدوا أنفسهم يحزمون أمتعتهم، ويهربون، يرحلون هاربين خفافا وثقالا، آسفين، مدحورين، شأنهم شأن الفرنسيين.

حفروا أخدودا عميقا بينهم وبين الشعب المحيط بهم، وسكن الشياطين الجسر الذي يمكن أن يمروا عليه.

النظرية التي تقول إن اليهودية، روح، تكتسب من ممارسة التجارة، والاعتماد عليها كوسيلة وحيدة في الحياة، وإن كل الأشخاص وكل جماعة يمكن أن يتهودوا بفعل التجارة ، بهذه الدرجة أو تلك، هذه النظرية قريبة جدا من الصحة. فيهود الجزائر، خرجوا عن حلقة التجارة إلى ممارسة السلطة، بالتوظيف، وبالاستيلاء على الأرض، وممارسة بعض الصناعات. فانخدعوا.

نقصتهم اليهودية، فاحتقروا التاريخ.

وعندما خرج الفرنسيون مقهورين مثخنين بالجراح، مثقلين بالأسى، اضطروا أن يخرجوا خلفهم، حاملين أشلاء يهوديتهم.

ماذا لو بقوا؟

ماذا لو أن قسنطينة، والعاصمة، ووهران وتلمسان، لا تزال مكتظة بهم. محكومة تجاريا واقتصاديا من طرفهم؟

كانت الحدة تنقص ولا شك.

كان معظم الريفيين الذين اقتحموا المدن يبقون في ريفهم. وكانت السياسة تفقد كثيرا من الحدة والتطرف. كان التدخل يكون أكثر وأقوى، لتليين الأمور والتخفيف من حدتها.

كانت الأمور لا تختلط مثل هذا الاختلاط. مقهى مرتبة بنجمتين أو ثلاث، أو قاعة شاي، يجلس فيها شاب وشابة يتغازلان، وشيخ يقرأ في المصحف وآخر يذكر الله بسبحته، إلى جانب بائع بيض أو أي شيء من هذا القبيل، إلى صاحب الملايين، إلى جانب الفقير المعدم.

كان الناس يحافظون على الأقل على الحدود الفاصلة بينهم، مقتنعين بأن الله عز وجل، خلق الناس درجات ومراتب.

لقد بقي الأشراف أقلية، فلم يستطيعوا أن يصدوا غزو الرعاع. قاوموا بالاحتجاج. قاوموا بالدعوات. قاوموا بالانغلاق على أنفسهم... أخيرا جرفهم التيار.

لو بقي اليهود في المدينة، ما كان بالباي يتردى إلى ما تردى إليه، وما كان "السباط" ينحدر إلى ما انحدر إليه، ولا ساحة "الأبريش" تصير مثلما صارت، سوقا، ورحبة، يلعب فيها حتى الدمينو، واظلات الحديقة، مأوى العشاق والمحبين لا باعة الشاي، بكوانيهم الفحمية، وباعة التمر الحامض، أو الحمص المتعفن.

يهود الجزائر، لم يكونوا أذكياء. كانوا أغبى يهود العالم. كانوا غير يهود.

والحق. أن حدة طبع بشر الجزائر، هي التي لا تترك المجال للوسطية، أو لأنصاف الحلول. ذهنية ريفية متخلفة، تنتقل من النقيض إلى النقيض في أقصر وقت.

إذا أرادوا أن يموتوا ماتوا أجمعين، وإذا راقهم أن يحيوا حيوا أجمعين، حتى ولو كانت قدم أحدهم على عنق الآخر أو نصبة أحدهم عند باب متجر الآخر.

ألفّ يسارا. من هنا، عند هذه الخربة. ثم أتوقف. زاوية الكتانية، من هنا، ترى ماذا كان مصيرها؟

انعطف الشيخ عبد المجيد بوالارواح بسيارته، واقتحم سوق العصر. توقف أمام مخزن فيه عدة قوارير غاز، وعدة علب صابون، وصفائح زيت لا يدري أكانت فارغة أم ملأى، وكيس فريك غير مطحون.

رائحة العفونة قوية.

التفت يمينا. وراح يقرأ على باب كنيسة باللغة الفرنسية تحت العبرية: "ذلك أن بيتي هذا سيكون مصلى لجميع الشعوب".

ترى لما أبرزوا هذه الآية أو الحديث أو الحكمة؟

ماذا يريدون أن يقولوا، هم الذين حكموا على أنفسهم أن لا يكونوا إلا شعبا واحدا. وأغلقوا بيوت الله في وجوه جميع الناس، كأفراد، بله، كشعوب، وهم الذين، أنشأوا أخيرا بيتا كبيرا على حساب الآمنين من المسلمين والنصارى. خاصا بهم، ومغلقا دون جميع الشعوب؟؟

يقين أنها دعوة محتشمة، للدخول إلى باب مغلق، غيرة أو حسدا أو مزاحمة، لكنيسة النصارى التي كانت تسعى جاهدة لتنصير الجزائريين.

مجرد تظاهر بالتسامح والتفتح أمام الشعب الأوروبي، حتى أن اللغة التي كتبوا بها آيتهم بالإضافة إلى لغتهم، هي الفرنسية.

كانت عقدهم، ومركب نقصهم كساميين يحملون الجنسية الفرنسية، تدفعهم إلى إبراز ما عندهم إلى مستوى أسيادهم.

عليهم اللعنة.

إلا أن بقاءهم، ربما كان يكون أفضل بالنسبة لنا. لنا نحن الأشراف والأعيان، مالكي الأرض، وكبار التجار، وأصحاب الأموال، والأيمّة والقضاة.

تجري الرياح بما لا تشتهيه السفن.

هذا الشعب، قدر له أن يواجه كل شيء، في حدة وبلا خجل. شيخ يقرأ في مصحف، وأمامه شاب يقبل فتاة. نزل "بانوراما" وأمامه "حي باردو"، سيدي راشد وأمامه معهر باب الجابية. هذه الكنيست وإلى جانبها زاوية الكتانية.

تفقد الشيخ عبد المجيد بوالارواح أبواب السيارة، وانطلق ينحدر مع سوق العصر. زاوية الكتانية لا تزال مطلية بالأخضر.

كنا.

كان الشيخ بن باديس في حرب معها. هاهي تتحول إلى تكميلية. تمكن الفدائيون من تنفيذ حكم الموت في شيخها.

بموت الشيخ تموت الزاوية.

قالوا إن المقدم الذي كان عليها، صار مديرا. عزل، لكن سفرة إلى العاصمة أعادته. يقين أن الذين أعادوه فكروا هكذا: المهم مصير الزاوية. لقد صارت تكميلية وطنية وهذا أهم. أما هذا البئيس فلا يضر الجزائر أن يكون مديرا أو فراشا أو حارسا في السجن.

مقدم زاوية، مدير لتكميلية أو ثانوية، أفضل من شيوعي، أو من غرابلي، ولو كان عبد القادر بن عمي.

مدرسة إلى جانب التكميلية. مدرسة صالح باي. ثم المسجد. آه. لا يزال المسجد مسجدا. تلكم آثارنا تدل علينا. لا شك أن المقدم لا يزال يغطس أصابعه في العسل. يتلقى الزيارات والوعدات.

الناس. الناس. الرجال، النساء. الأطفال. وسط الخضر والغلال، والنفايات. ما بال هؤلاء الناس يتبعونني أينما ذهبت؟

لا شك أن النصف مليون ساكن سمعوا بقدومي، وخرجوا يعرقلون بحثي عن أقاربي لتنفيذ مشروعي العظيم.

الدكنة تعاود صدري. الحرارة ترتفع. المادة السائلة تتذاوب.

المدينة خربة كبيرة تتشابه إن في السويقة أو في الرصيف، أو في باردو أو في سيدي مسيد أو في زبالة بولفرايس.

ولو لم يعم الله أبصار ساكنيها، لكي يعجل بمصيرهم المظلم، لقذفوا بكل التراب الذي بنيت به مساكنهم إلى قعر الوادي، تخفيفا على الصخرة، وأقاموا في انتظار هروبهم، الخيام والمظلات.

ماذا يهمهم وهم الذين لا يعرفون حدا للاختلاط، أن يقيموا في كل حي خيمة كبرى، ينامون فيها ويفسقون، يبيعون ويشترون، يأكلون ويسرقون، يمزقون أحذيتهم ويرقعون.

لن يضطروا إطلاقا إلى انتعال الأحذية، ذاك أن كثيرا من الأشياء والأفعال ينجزونها وهم متكئون.

لتقم لهم دولتهم الملحدة، أربعة أو خمسة ملاجئ في قسنطينة من هذا النوع، ليروا ما معنى الاشتراكية والشيوعية، التي يسيرون إليها دون أن يدروا. بل التي يطبقون الكثير منها دون أن يعلموا.

هنا أيضا الإسكافيون. هنا أيضا الحمامات. هنا أيضا ثمر الصبار، هنا أيضا الروائح لها موجاتها. هنا أيضا الجدران مائلة.

عندما يأمر سيدي راشد، ويحدث الشيء العظيم، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها.

هذا الجزء يهوي بشياطينه إلى جميع الجهات. كل جسر يمد الأخدود الذي يقف عليه جزء منه.

سينال – طبعا – أخدود جسر الشياطين قسطا وافرا.

الانحدار يقوى والمارة يقومون والدكن يتكثف في قلبي. والمادة السائلة تسري في كياني...

ترى ما يكون مصير الرزقي البرادعي. ابن عم أبي؟.

تركته في حدود الأربعين. لن يستطيع أن يساهم بشيء في الحرب. ولن يكون وضعه قد تغير.

ماذا في وسع صانع برادع. لألحمر، وبغال تنقص يوما بعد يوم، ووسط جماعة من مزاحميه أن يكون، غير أن يظل برادعيا؟

لن يكون الرزقي ضابطا، ولا شهيدا، ولا أستاذا أو معلما، أو مدير تكميلية، أو وزيرا أو مستشارا أو واليا أو محافظا.

إن تغير وتغير، وأصبح بالفعل لا يكسب ثمن خبرته من البرادع، فسيكون إسكافيا، أو طرازا، وإذا جارى التطور، وانقلبت به الدنيا هو أيضا، فسيكون كهربائيا، أو مصلح حنفيات معه غلام أو اثنان.

المهم أن البرادعي، لا يستطيع أن يكون موظفا لدى الحكومة. لن يستطيع أبدا أن يكون جزءا من الحكومة.

آه. أين أنا؟ أنني لم أصل رحبة الصوف بعد، مع أنها غير بعيدة عن سوق العاصر.

راكب الحمار هذا يبدو أنه كان عند الرزقي البرادعي يساومه في بردعة.

عليه اللعنة. قدماه حافيتان. في عنقه رباطه، في فمه سيغار. على رأسه الذي حلق نصف بالموسى، فعبة صوفية أوروبية.

صاحب الدابة مقلوبا.

أين أنا؟ الروائح تنبعث متميزة، النهار بدأ ينقضي، والناس يتكاثرون.

أنا قرب سوق ولا شك. هذا شيخ مطرق في بلادة يجلس بين أرجل المارة وأمامه سلة ملأى بالحنة، وخمس محافظ أطفال .. السيارات تحاول شق الأمواج البشرية.

لقد تهت.

توقف الشيخ بوالارواح، وراح يجيل بصره. بانت له لافتة تعلن عن مدرسة خاصة. ثم كتابة على واجهة تعلن: "أناقة الشبيبة الإسلامية". تقدم من المتجر. ثديات. حصارات. ملابس نسائية داخلية.

عليه اللعنة في الليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى.

ارتفع الأذان. كان ثقيلا جدا. تساءل لماذا؟

- لم يجعلوا سرعة الحاكي مناسبة للأسطوانة.

قال شابا هازئا.

عليه اللعنة. عليهم اللعنة. يا سيدي راشد. يا ربي. الفتنة، والزلزال، والوباء، ولا تذر لهم باقية، واغفر لي ولآل بوالارواح.

- ديك رومي سمين يا عمي.
- فريك ارمضان.
- علبة جبن دانماركي يا بويا.
- الحصن الحصين. الروض العاطر.
- سلسلة ذهبية ثمانية عشر قيراطا.
- يا غزالة. يا غزالة اركبي معي السيارة.
- اذهب يا سافل.
- أي بيض انكسر! ما بك؟.
- الكلام المرصع فقد المذاق. والحرف البراق ضيع الحدة.

انبعث الصوت، من متجر الراديوهات والأسطوانات، يجلجل في نبرة مغربية متوجعة، واختلطت الأمور على الشيخ عبد المجيد بوالارواح.

إذا ما سألت علموا أني غريب وتبعوني. كلهم لصوص وقطاع طرق. أسأل تاجرا من التجار.

يا حسرتاه على التجار الحقيقيين. هؤلاء متسولون وليسوا تجارا. تركوا رعي الاغنام، والعصي، وهجموا على المدن يحتلون متاجرها ومساكنها ويتزوجون بناتها ويعلنون أنفسهم في المرتبة والمهنة والوظيف الذي يخطر ببالهم.

أسأل هذا الشيخ القادم. إنه حضري يتألم من الوضع. لا بد أن الإحساس بالزلزال يعجل بانهياره، دعه يقترب.

دفعته عجوز. تخلص منها. داس قدمه شاب. اعترض طريقه بائع دجاجة. توقف عن السير. السيارة تقطع عنه الطريق. طفل يمر من بين رجليه.

تخاص منهم جميعا. كم يحسن السير وسط هذا الزحام. رائد أنهج قسنطينة بحق.

- أين رحبة الصوف يا رحم الله والديك؟

لم يكد ينهي الجملة، حتى كان الشيخ الحضري قد اختفى، ساقه التيار أمامه، دفعه شاب، وأحاطت به عجائز، وضاع أثره.

أقذف بنفسي وسط هذا الموج وأتدافع معه، حتى أجد مخرجا، من هذا التيه. هل انحدر؟ هل أصعد؟ هنا التيار يسير في جميع الاتجاهات. يصعد وينزل ...

هنا قاع النهر. قاع المحيط. يتعرض لضغط الدفع من جميع الجهات، فيصعد وينزل ويتقدم ويتأخر، يحمل معه الطين والرمل والحصى والأعشاب والطحالب والاسماك الميتة ويروح يتلاوب في مكان واحد.

نفس الأنهج. نفس الروائح. نفس البضائع. نفس الأوجه، في كل شبر من المدينة. كلما صعدت ضيعت شخصيتها.

كلما نزلت ضيعت شخصيتها. ما إن تبدو فيها ملامح شخصيتها حتى تنمحي.

لم يبق في قسنطينة سوى المساجد والزوايا والأضرحة والحمامات وأفران الأدمغة المشوية. حتى هذه الأشياء فقدت كلها محتواها.

المساجد يؤذن فيها بالكهرباء، وبالأسطوانات بغير سرعتها. والزوايا صارت تكميليات وثانويات، والحمامات لم تبق سوى كنائف ومباول ومن يدري أية أدمغة تشوى في الأفران. لعلها أدمغة كلاب وذئاب.

أنحدر، رحبة الصوف تقع في المنحدر بالنسبة لسوق العصر. أطلق نفسي في التيار النازل، وأتركه يسوقني إلى المنتهى. فلا بد أن نهجا رئيسيا يقع في آخره ومن هناك أنطلق سواء نحو السيارة أو نحو رحبة الصوف.

ارتمى الشيخ عبد المجيد بوالارواح في النهج، وسط موج الراجلين، تدفعه الأكتاف والأيدي، وتدوس على رجليه الأقدام، وتزمر عليه السيارات، ويتعرض له الباعة.

أنا في صحراء سينا.

أنا في التيه.

أنا في حي اليهود. أين أنتِ يا سيارة؟ أتراك في الشرق أم في الغرب؟ وماذا فعلتِ معه ذاك الذي كنت مثلي تحملين به؟

يا لهذه الأصوات المزعجة التي تملأ أذني.

- مئات الشاحنات تمر في كل ساعة نحو عنابة وسكيكدة.

- المنطقة صارت فعلا صناعية.

- تصور، أن الطريق تنزلق يوميا، من جراء الثقل الذي تتعرض له، حتى أنها لم تعد صالحة للمرور.

- لا. الحكومة في مجال التصنيع بذلت جهدا محترما.

- والتعليم أيضا. منذ صارت البلديات مسؤولة عن بناء المدارس، لم تبق تقريبا "دشرة" بدون مدرسة، حتى الذين لا أمل لهم في أن يصلهم معلم في سنة أو أكثر، يبنون المدرسة ويروحون يطرقون الأبواب.

- فرنسا لم تخلف أي أسّ بناء لوطن.

- ولا حتى لإقليم يعيش في القرن العشرين.

- سارق. سارق. أمسكوا السارق.

- السارق. السارق.

- عندما زلزلت قسنطينة في سنة 1947 ظن الناس أنها ستنتهي.

- كنت صغيرا ولا أذكر إلا أمواج الخلق هاربة في كل اتجاه، مستغيثة بجميع اللغات.

- أنا كنت في العشرين. ما أزال أرى بين عيني الآن جثث مئات ومئات الأطفال ملقاة في الأنهج، بعضها داسته الأقدام فحولته إلى شريحة لهم، وبعضها لا تزال فيها الحركة، وبعضها لا تزال سليمة. كان الناس يجرون في هلع كبير. ما زلت اسمع وقع الأقدام، وصراخ النساء والأطفال.

- قالوا يومها إن قلب الصخرة "كاربير"

- وآخرون قالوا ملح.

- أطلقوا سراح جميع المساجين التقدميين.

- هذه خطوة. أنا لا أفهم كيف يمكن أن يدعي بلد الاشتراكية، واشتراكيوه في السجن.

- الحق. هناك ميزة لا تزال بلادنا تتميز بها حتى الآن. وإذا استمرت فستكون للأجيال القادمة سنّة: عدم اللجوء إلى سفك الدماء. تصور ماذا جرى من الاستقلال إلى الآن من أحداث. لم يعدم

أي سجين سياسي حتى الآن. مهما يبلغ الحقد، ومهما يبلغ الجرم، ومهما كان الخلاف فان الإعدام والإغتيال السياسيين لم يعرفا بعد في بلادنا.

- معقول لكن أتظن أن الرجعية الحقيقية عندما تكون في الحكم أو حتى قريبة منه، تحجم عن سفك الدماء. لا الحدة الطبقية ينبغي أن تكون. وليس هناك طبقة تحكم بدون استعمال العنف والدم.

- أتشتري يا عمي، بيض إوز جديد، بيض يمكن تفريخه.

- عاد بها من فرنسا. جديدة لم يمر عنها سوى أربع سنوات. فكر أن يستغلها في انتظار أن يبيعها أو أن يجد عملا. راح يستعملها للإيجار السري. علم به الدرك، خيروه أن يبيعها لهم بثمن بخمس أو أن ينتزعوها منه. وعدهم ببيعها. قرر أن يعود بها إلى فرنسا. لكنهم استعجلوا. أتدري ما فعل؟

- لا.

- صب عليها البنزين وأضرم النار.

- مجنون. الإصلاح الزراعي سيعرض على النقاش عما قريب.

- هكذا؟!

- عما قريب جدا، علمت ذلك من الاجتماع الأخير بالعاصمة. هذه السنة يشرع في العملية.

- سيكون حدثا عظيما. مثل اندلاع الثورة، أو الحصول على الاستقلال. الحق أنه تأخر. تأخر. تسع سنوات كاملة بعد الاستقلال ولم يتحقق أي عمل في هذا المجال. أنظر إلى هذا الخلق، إنهم هاربون من الريف، حيث البطالة والجوع والمرض والجهل. والله وحق ربي أنهم في القل وفي الأوراس وسوق أهراس وتبسة، لا يزالون على ما كانوا عليه منذ عدة قرون.

اشتدت الحرارة.

شعر الشيخ عبد المجيد بوالارواح، أن المادة السائلة طفحت من فمه وأنفه وعينيه، وأنها تغمره، وأن "الدكن" حوّل كل شيء في الداخل والخارج إلى لا مرئي..

لم يعد يدري أين يوجد؟ وهل يحدث أحدا أم لا؟ وهل أن الدفع يدفعه إلى الأمام أم إلى الخلف أم يلولبه ويلولبه في موضع واحد؟

- أين عمار الحلاق، صهري؟
- عمار الحلاق شهيد.
- أين عبد القادر الغرابلي ابن عمي؟
- عبد القادر بوالارواح الغرابلي أستاذ.
- أين الطاهر بوالارواح النشال؟
- الطاهر بوالارواح النشال ضابط سام يحل ويربط.

- أين عيسى بوالارواح ابن خالتي مقدم الزاوية؟

- عيسى بوالارواح مقدم الزاوية شيوعي في الحياة السرية.

- والرزقي البرادعي ابن عم أبي؟

- الرزقي البرادعي. إمام في الجامع.

- سبحان الله !

- لا. والي.

- سبحان الله !

- لا. وزير.

- سبحان الله !

- لا. شهيد. لا. خائن. لا. إمام. وزير. رئيس.

- سبحان الله. سبحان الله.

كان الموج يدفعه، وكان يتحدث بصوت عال، وكان الأطفال يتبعونه ويضحكون من أعماقهم ويكررون ما يفوه به.

صاح بأعلى صوته:

- أين أنا؟ أين أنا؟

فأجابه الأطفال بصوت واحد:

- في جسر الشياطين. في جسر الشياطين.

فتح عينيه. قابلته الثانوية. قابلته "جان دارك" تحاول الطيران، قابله المستشفى. قابله خزان الحبوب، فالمحطة. صفر القطار. شعر بالانزعاج. التفت إلى الخلف.

هذا حي اليهود سابقا.

- أنا في جسر الشياطين فعلا.

شعر بالذعر. لفته المادة السائلة واللون الداكن. راح يركض إلى فوق وهو ينادي بأعلى صوته:

- يا سكان مدينة قسنطينة. الزلزال. الزلزال. يا آل بوالارواح. الزلزال الزلزال.

7- جسر الهواء

قطع الشيخ بوالارواح المسافة الفاصلة بين جسر الشياطين، وجسر الهواء راكضا.

عندما وجد نفسه على الجسر، كانت الحرارة المنبعثة من جسمه مرتفعة. التفت نحو سيدي مسيد، وتنفس من أعماقه. التفت نحو باب القنطرة وجذب نفسا كبيرا أيضا.

لا جدوى. الهواء خانق. الومد. الومد في الصباح وفي المساء.

مرت سيارة، فراح الجسر يتحرك، مهتزا إلى فوق وإلى أسفل، اهتزازات غير منتظمة. دق قلبه، انقبض صدره، ارتفعت إلى أذنه صيحات الأطفال.

- بوالارواح. بوالارواح.

فتح عينيه، تأمل الأطفال. كانو صفا طويلا خلفه، نهرهم رجل، فولوا هاربين. بقوا في مدخل الجسر يهتفون:

- يا عمار. يا عبد القادر، يا الطاهر يا عيسى يا الرزقي. يا بوالارواح.

- أفي حلم أنا أم في يقظة ؟.

أبصرهم. رآهم يملأون مدخل الجسر.

هؤلاء أبناء عائشة، أبناء سارة، أبناء حنيفة، أبناء زوجة الخماس، أبناء ابنتها. أبناء مليون امرأة وعشرة ملايين رجل.

هذا صاحب الدابة على دابته. ذيلها في المشرق ورأسها في المغرب. جزء من بطنها فوق قسنطينة.

انحنى وملأ ذراعيه بالأطفال:

- خذ يا صاحب الدابة، خذ هؤلاء أبناء فسق وفجور.

فتح عينيه. الجسر يتحرك، الأخدود العظيم يفغر فاه. صراخ من في الأسفل لا يسمع. صراخ من في الأعلى أيضا.

لم أكن مرة في الأسفل لأرى كيف يبدو الأعلى من تحت.

من الأعلى يبدو الأسفل مسطحا رغم بعده. الناس يبدون في حجم جد صغير، والأشياء تبدو جد تافهة.

هذا شأن كل ماض. لا. هذا شأن كل الشعب. كل الرعاع.

حافة الصخرة، من الأسفل إلى الأعلى، مفصلة طبقات بعضها فوق بعض. ممر ضيق جدا للراجلين، فوقه طريق معبد يمر على جسر سيدي مسيد. فوق، طريق سكيكدة يتلاوب مع الحافة وسط الكهوف والأنفاق.

- يا عائشة. يا زوجتي التي لم أتزوجها وأختي التي لم تلدها أمي أو ينجبها أبي، يا ابنتي التي لم تخرج من صلبي. لماذا بقيت آثار أصابع أبي على عنقك المزرورق؟

طفح السائل من عينيه وأنفه وفمه وغمره، لفه اللون الداكن، عندما سمع طرقا حوله. انحنى، تناول عنقها بين يديه. ضغط عليه وضغط. أسلمت أنفاسها. بدل أن يتركها وشأنها، حملها من عنقها، رفعها إلى فوق. مدد ذراعيه، تدلت رجلاها في الفضاء أطلقها.

هوت تتكور في ثوبها الأبيض. قبل أن تصل القاع البعيد، لوحت له، هامسة:

- أصابعك مثل أصابع أبيك، ويداك مثل يديه.

فتح عينيه، الجسر يتحرك، الأطفال يهتفون من حوله:

- يا بوالارواح.

- إنهم نقابيون. لا طلبة. لا رعاع مزبلة بو الأفرايس. هؤلاء يريدون أن يقذفوا بي إلى أعماق الأخدود، إلى أسفل السافلين. سأقذف بهم قبل أن يقذفوا بي.

انحنى، حمل حزمة منهم. حاول أن يعصرهم قبل أن يلقي بهم، شعر بالوهن، أقذف بهم إلى الأسفل أحياء.

مد ذراعيه، فتح يديه. أطلقهم. لم يهووا. ظلوا حيثما كانوا. فوق. في مستوى بصره وأنفه، قهقهوا.

- نحن من سيدي مسيد.

- نحن من مزبلة بو لفرايس.

- نحن من السويقة.

- نحن من سوق العاصر. من باردو. من "من جنان التشينة".

- نحن أبناء شهداء القل. الميلية. ميلة، الأوراس. جرجرة.

- نحن أبناء عمال "ماشا " وعمال السكك الحديدية، وعمال جامع الأمير عبد القادر.

- عليكم اللعنة جميعا. انزلوا إلى أسفل سافلين.

لم ينزلوا. ظلوا يقهقهون.

فتح عينيه، لم يكونوا في مستوى بصره. كان بعضهم عند مدخل الجسر الشرقي، وبعضهم عند المدخل الغربي.

التفت بسرعة إلى هنا وهناك. خيل إليه أنهم انطلقوا دفعة واحدة نحوه، وأنهم سيحملونه ويرمون به إلى القعر. فكر أن يصرخ مستنجدا:

- يا سيدي راشد ! يا أهل قسنطينة !

إلا أنه فتح عينيه. الماء ينساب داكنا في القعر.

بيني وبين الأسفل مليون ميل. عشرون مليونا. إذا ما هويت، لن أموت، ولن أصل إلى هنالك. لن أدعهم يرمون بي، سأقذف بنفسي إن اضطررت، ولن أدعهم يقذفون هم بي.

أنا أقوى منهم.

أنا صهر عمار الحلاق وعم الطاهر النشال، وابن عم عبد القادر الغرابلي، وقريب الرزقي البرادعي. أنا بوالارواح ابن بوالارواح وقريب بوالارواح.

الجسر يهتز. سيارة تمر. وقع حوافر حمار. النار تضطرم في الداخل، المادة السائلة تفيض وتغمره، الدكنة تصبغ العالم.

خيل إليه أنه يسمع صوته:

- يا حنيفة، يا زوجة أبي وزوجتي، كنت هي. كنت عائشة في كل شيء. لماذا ارتسمت أصابعي على عنقك المزرورق، مثلما ارتسمت أصابع أبي على عنق عائشة؟

اقترب وقع حوافر الحمار، انغلقت عيناه، امتدت يداه بأصابع متقلصة، تناول عنق حنيفة، راح يضغط ويضغط، أسلمت أنفاسها. حملها إلى فوق. مدد ذراعيه، انفرجت أصابع يديه، راحت حنيفة تهوي وتهوي متكورة في ثوب نومي شفاف، قبل أن تسلم نفسها إلى الأسفل التفتت نحوه هامسة:

- ذاك أنك مثل أبيك.

فتح عينيه. الجسر يهتز، الومد متواصل. مدخلا الجسر يمتلئان. إنهم يحاصرونني.

يحاصرونني من سيدي مسيد، من مزبلة بو الافرايس، من السويقة، من سوق العاصر، من باردو، من جنان التشينة.

أبناء الشهداء يحاصرونني، أبناء عمال "ماشا" وعمال السكك الحديدية وعمال جامع الأمير عبد القادر يحاصرونني.

لن اجزع منهم، أنا أقوى منهم جميعا، وسأتناولهم في حزمة واحدة. أقذف بهم إلى القعر. أنا وعدت سيدي راشد. سيدي راشد لا يخيب الرجاء. لن ينتزعوا مني أرضي. أنا صالح، أنا من عباد الله الصالحين، أورثني أرضه، ورفعني في الرزق درجة.

- بوالارواح. يا بوالارواح.

انبعث الهتاف من مدخلي الجسر. التفت يمينا، التفت شمالا. إنهم مسلحون، الطاهر بوالارواح معهم، عبد القادر بوالارواح معهم، عمار أيضا، عيسى يحمل لافتتهم. الرزقي البرادعي يصلي بهم. إنهم يهجمون. إنهم يتقدمون.

- يا سيدي راشد. يا سكان قسنطينة.

- يا بوالارواح.

أجابه الأطفال ففتح عينيه: عميق. عميق الخدود.

في أسفله إبراهيم الخليل. وعاد. وثمود. وجرهم، وقحطان. وتاكفاريناس، ويوغرطة ونيرون، وعقبة ومسيلمية.

عميق. عميق الأخدود. في قعره الجائعون، أبناء السويقة وسيدي مسيد وعوينة الفول ومزبلة بو الافرايس. وأبناء جميع العمال والتعساء.

- لا. لن أنزل إليكم.

تجسس الحبال الفولاذية التي تشد الجسر.. لو بقي الفرنسيون هنا. لو يعودون بشكل من الأشكال. لو لم يرتكب يهود الجزائر الخطأ الفادح في تاريخ اليهود. لو وجد بالباي من يناصره.

اهتز البركان في الداخل. اهتز الجسر، طفح السائل من فمه وأنفه وعينيه. غمره الدكن..

في مطلع الشهر الخامس قالت إن شيئا يتحرك في بطنها. فرحنا كثيرا. إلا أنها بعد أسبوع اختفت. انقطع أثرها سنوات. ثم بلغني أنها في فرنسا مع ابن عمها ووالد ابنها الحقيقي.

- أين تهربين يا زوجتي الثانية. أنت هنا. أنت هنا عند قدمي.

انحنى. مد أصابع يديه إلى عنقها. ضغط بعنف، لم تلفظ نفسها، ظل صدرها يعلو وينخفض.

- لن أموت. أنت تخنق نفسك ولا تخنقني. أنت عاجز، أنت عقيم.

حملها. قذف بها. انحدرت نحو قعر الأخدود، تواصل انحدارها أكثر من اللازم. قبل أن تقترب من القعر، هتفت:

- سيعود ابني من فرنسا، وسيقذف بك إلى أسفل سافلين.

انفتحت عيناه.

على جسر الهواء يسمع المرء هديرا كبيران عندما يتأمله، يخيل إليه أنه يسمع كل ما يقال في قسنطينة ويدب فيها. مليارات الموجات تعمل عندما يكون الإنسان في جسر الهواء. كل موجة تحمل صوت امرأة أو صوت طفل أو صوت شيخ، أو صوت حيوان أو أزيز محرك. حقا إن الأصوات غير متميزة كثيرا، فالموجات رغم انفصالها عن بعضها، وسيرها في خطوط متوازية، يبدو أنها متحاذية أكثر مما يجب.

لكن في جسر الهواء، تحمل الأصوات الهادرة إلى قلب الإنسان إحساسا كبيرا، بان المدينة تقول شيئا ذا معنى.

ارتفع الغليان في صدره. فاضت المادة السائلة. غمرته، وغمر اللون الداكن كل ما حوله:

- الناس يتحدثون.

- وماذا يقولون؟

- يقولون إنني ديوث!

- وما يضيرك؟

- في الحقيقة يا سيدي أنني خجلت منك، جدي خدم جدك، وأبي خدم أباك، وأنا خدمت أباك وأخدمك.

- اختر بين أمرين.. إما أن ترحل إلى فرنسا وإما ن أرسلك إلى "كيان".

- خذ البنت وأعد لي أمها.

إما أن تسافر إلى فرنسا أو إلى المنفى.

- أمرك سيدي الشيخ.

انحنى وراح يضغط بأصابع يديه المتصلبة. لفظت زوج الخماس أنفاسها. لفظت ابنة الخماس أنفاسها. الخماس يحوم حوله. الخماس يريد أن يقول له شيئا. الخماس ينظر إليه في خجل. اختفى. زوجته وابنته خنقتا. رمى بهما إلى القعر. انتظر أن تسقطا، فلم يحدث ذلك. ظلتا فقط تهويان وتهويان. كلما ابتعدتا، بانتا له أقرب. أصوات ترتفع. لا يدري أهي منهما أم من غيرهما.

- الخماس لم يمت. الخماس ليس عاقرا. الخماس سيعود بشكل أو بآخر. الخماس عاد. لينتزع منك الأرض ويملأها أطفالا.

لا؟. لا.

عندما ارتفع صوت الشيخ بوالارواح، فتح عينيه. الناس يمرون من حوله ولا يرونه. الأطفال فقط يرونه ويحاصرونه. ويملأون أذنيه بالهتاف:

- يا بوالارواح.

الجسر يهتز. الومد متواصل. الشمس في أقصى الغرب. صخرة في الأسفل تفلت من باقي الصخور. البخار يتصاعد. قلب قسنطينة "كربير". قلبها فحم. قلبها ملح. باقي الصخور تتفتت. الغبار يتصاعد. الجسر يرتفع إلى فوق. يبتعد إلى الأعلى. الزلزال حدث.

آه. يا سيدي راشد آه.

الناس يركضون. الناس يتكورون مع الصخور، جثث الأطفال تتحول إلى شرائح. قوارير الغاز تنفجر. خزان القمح يذوب. البنزين يسيل. النيران ترتفع. ألسنة اللهب تتعالى. الجسر يبتعد أكثر. الصراخ يصل إلى هنا. رائحة الشواء تفوح قوية، شواء كل شيء. كل شيء في المدينة. الأخدود يمتلئ. سيدي مسيد يختفي. باردو ينمحي. مزبلة بو الافرايس تتصل بباقي المزبلة. الأرض تستوي. قسنطينة ذابت. قسنطينة لم تكن.

فقط بقي جسر سيدي راشد يحمل الأشراف والأعيان. جسر الهواء، يعود بي ويلتصق بالأرض.

آه. يا سيدي راشد. تستحق عن جدارة علبة شمع.

وفتح عينيه. كل شيء على ما كان. الأخدود عميق وعميق. مدخلا الجسر محاصران بالأطفال. مازالوا يهتفون.

- بوالارواح يا بوالارواح.

هل إنني مع الزلزال أو ضده؟ أنا مع القضاء على الإحساس المتواصل بالزلزال. لا يفعل ذلك غير الزلزال الحقيقي. غير أن يلبي سيدي راشد دعوتي، ويتقبل وعدتي.

لا نسمة، ولا ذرة ريح. الحرارة تتصاعد. السائل يفيض والدكن ينتشر...

دخل عريسا يفوح منه العطر. وفق مشيئته كانتا على السرير في انتظاره.. أمرهما بالنزول. نزلتا.

أنت انزعي الحذاء الأيمن وأنت الأيسر. هيا. قال بصوت غليظ. امتثلتا. عندما أنهتا عملهما، ركلهما معا.

أنا الشيخ بوالارواح زواجي هذا بكما هو الخامس. "أنا ربكما الأعلى"، ما أبيحه مباح، وما أحرمه حرام. تعريا. امتثلتا.

أنتما رغبة واحدة. أنا صاحب الرغبة المطلقة. ناما. امتثلتا.

أنا بوالارواح، وأنتما النقيضان المنسجمان بحكم إرادتي. أنت المال، وأنت العلم. أنت السنة وأنت البدعة. أنت باديسية وأنت كتانية.

في الغفوة، اختفتا. ها هما في الوادي، تلوحان بأيديهما.

إرادتك يا بوالارواح لم تتعلق بالعقم. أنت عقيم.

- إرادتك يا بوالارواح لا تنفذ في تمديد روحك. أنت عقيم.

حتى في القعر، مازالتا عروستين. تجلسان على سرير واحد. وتتبادلان نظرات واحدة، وتفكران تفكيرا واحدا.

النقيض لا يقضي على النقيض، وإنما يتيح الفرصة لحاصل ثالث يبحث عن النقيض.

- يا بوالارواح. يا بوالارواح.

فتح بصره.

أطفال المدينة كلهم يتجمعون عند مدخلي الجسر. ابن باديس أيضا معهم، يبغون أرضي. يريدون انتزاع أرضي

مني. لا. لا. اذهبوا إلى أوروبا. اتركوا هذه المدينة. هاجروا إلى عنابة وسكيكدة ووهران، فهناك المعامل الضخمة، وهناك الأرض المنبسطة. هاجروا، هنا ستزازل، سيدي راشد سيزلزلها. لقد اتفقت معه على ذلك. اذهبوا. اذهبوا لن أعطيكم أرضي، سأسجلها لعمار والطاهر وعبد القادر والرزقي شرط أن لا يحوزوها إلا بعد موتي، وأن لا يبيعوها لغير بوالارواح.

الحرارة. الاختناق. المادة السائلة. اللون الداكن. الطرق على الجسر، على الباب. من هناك؟ من هناك؟

سارة!

أنت لم تموتي لأنك عاقر. يوم تموتين، تنتهين مرة واحدة. تدفنين مع الرغبة والشوق والدكن.

لنقلته قبل أن نتبناه.

لنقلته مسلما، ولنقلته يهوديا، ولنقلته نصرانيا.

اخنقي روحه الأولى، وسأخنق باقي أرواحه.

لا تأثمي يا سارة، كما أثم بنو قومك، فالبيت بيت الله، والله يريده مصلى لجميع الشعوب.

افتحي النوافذ ولا تقفي خلفها. كل شيء لله، والله يعطيه لعباده الصالحين.

عودي يا سارة عودي.

آه.

لا أنت في الأخدود ولا أنت في الجسر، أنت خارج الزلزال يا سارة، لأنك وبني قومك ارتكبتم الخطأ. احتقرتم التاريخ. خرجتم وتركتم الأشراف وحدهم. وستظلون تخرجون وتخلفون الأشراف وحدهم. تموتون يوم تموت الرغبة فيكم، وتزلزلون يوم تولد الرغبة فيكم.

محكوم عليك، وعلى قومك، وعلى الاستعمار، وعلى الأشراف يا سارة.

- يا بوالارواح.

- إنهم يقتربون.

كانوا يقتربون فعلا.

كان جسر الهواء يمتلئ من جانبيه. البعض أطفال. البعض كبار. بعضهم في لباس مدني، وبعضهم في لباس عسكري. الشيخ بن باديس معهم. عيسى بوالارواح معهم. الطاهر بوالارواح معهم. إنهم يتقدمون، إنهم يتقدمون. الغناء يرتفع:

الكلام المرصع فقد المذاق. والحرف البراق ضيع الحدة.

النار تتقد. المادة السائلة تسيل. الدكن يطغى.

أيتها البسكرية، يا ابنة عقبة بن نافع، أعيريني صرعك. خذي عني صرعك. ابكيني قبل أن أقذف بنفسي من أعلى الجسر. ابكي كل آل بوالارواح.

لقد قذفت سترتي. لقد قذفت قميصي. حذائي. سروالي. إنهم وصلوا قبل أن أقذف بنفسي.

يا سيدي راشد. يا سكان قسنطينة.

- يا بوالارواح.

هتف الأطفال، في حين كانت الشرطة تلقي عليه القبض، وتمنعه من الانتحار. وفي الطريق إلى المستشفى لم يبق في أذنيه سوى ثلاثة أصوات:

صوت الحضري المطربش يهتف: يا سيدي راشد يا صاحب البرهان.

وصوت يغرد مع الرباب، "يا سيدي الطالب داوني نبرا".

وصوت يعلن في رنة مغربية متوجعة: الكلام المرصع فقد المذاق

والحرف البراق

ضيع الحدة.

السطحة المنصورة: قسنطينة في 13- 9- 1973.